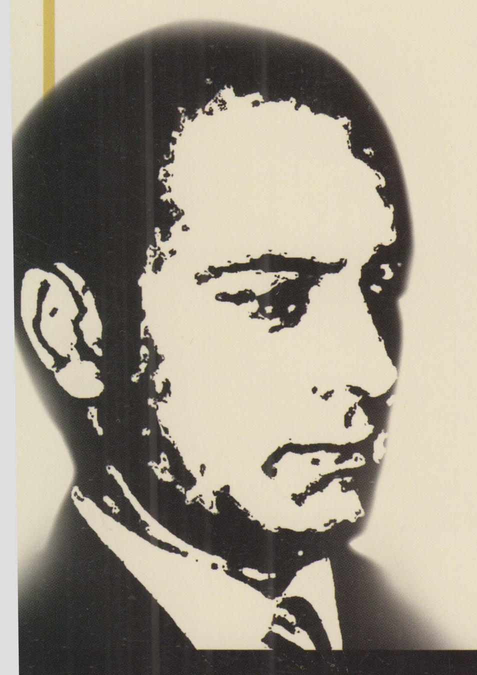
عبداللطيف الحرز

الحسينُ طاقةُ الأملِ

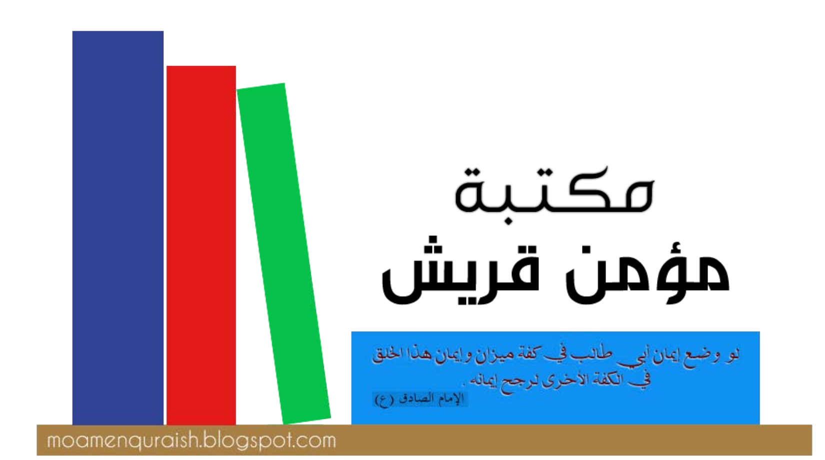
دراسة مقارنة لقضية كربلاء بين

محمد صادق الصدر و علي شريعتي





دار المحجة البيضاء



مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

الحسينُ طاقةُ الأملِ

دراسة مقارنة لقضية كربلاء بين

محمد صادق الصدر وعلي شريعتي


بسم الله الرحمن الرحيم

عبداللطيف الحرز

الحسينُ طاقةُ الأملِ

دراسة مقارنة لقضية كربلاء بين
محمد صادق الصدر وعلي شريعتي

سلسلة: غريب على طريق..
شوارع خالية في منتصف الليل والألم

دار المحجة البيضاء

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ / ٢٠١١م

ISBN: 978-9953-567-27-3



الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمّال
ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١
تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - E-mail: almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com



الإهداء

إلى الفتاة التقية النقية الصابرة المتعبدة:

«شهد»، أضع بين يديها مصباحاً لطريق طويل.

إلى كل من يبحث عن الحرية في هذا السجن الكبير.

* ◗ *

توطئة

التفاوض المفاهيمي

سُبل فتح طاقات الفرد والمجتمع:

يقول المفكر الكبير «تونبي»: إن الأمم لا تُقتل وإنما تنتحر. ونحن حينما نهجر الوعي الحيّ المتمثل بتراث مدرسة أهل البيت عليهم السلام، ونحولها إلى طقوس في الغيبوبة، أو نعادي هذا التراث عبر ترسبات تعاليم طائفية مشوهة، فإنا بذلك نقدم على عملية انتحار حضاري حقيقي. ونحن اليوم أمام مشهد الخراب في روح وبدن الأمة، نلمس بوضوح عمق الحاجة إلى بناء الذات الإنسانية من جديد، حيث يمثل تراث مدرسة أهل البيت عنصر أساسي في عملية مشروع البناء العمراني هذا. لكونه تراث لايتوافق مع التستر على فساد الحاكمين والنخبة، ولا يمكن تدجينه مع نفعيات المؤسسة. بحيث يبدو أن كل مشروع لإحياء الإنسان العربي والإسلامي بدون تراث هذه المدرسة، عملية شبه عبثية.

فحينما تحول الإسلام إلى مبررات سلطوية وتحول المجتمع إلى مركزية مادية وثقافية في مدح البلاطية والديكتاتور المربوط بين قسوته وشهوته، بين نثيله ومعتلفه، صدع الإمام الحسين

بثورته، ثورة عاشوراء. من أجل إعادة مركزية الإنسان بكونه غاية الوجود الكوني، وأن الناس بصفتهم ناس هم الذات المُخاطبة من قبل السماء ولأجلها تمهدت خيرات الأرض.

لقد كان الانقلاب القبلي والعشائري على الإسلام، حولت العلاقة بين الناس والسلطة علاقة طبقية. والعلاقة بين شرائح المجتمع علاقة العداء. فأتت الثورة الحسينية لتعيد بناء خرائط هذه العلاقات التي خلقتها تربية الاستبداد. حينما نقرأ التعددية في معكسر الإمام الحسين وأنصاره، ندرك علاقة الإنسان سواء مع السماء أو الأرض، مع السلطة أو المجتمع، مع الخادم أو مع القيادة، هي علاقة صداقة. معسكر الإمام الحسين كان معكسر تفاعل المودة المبنية على التوجيه القرآني ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

لقد كان معكسر الإمام الحسين باباً مفتوحاً يدخل منه الصبي والمرأة العجوز والشيخ الكبير، والشاب اليافع والرجال قراء القرآن وفرسان السيف، فإذا بهم يتحولون إلى هوية واحدة: هوية الشهادة، هوية الذات القرآنية العارجة في ملكوت المعنى.

ثمة معنى خاص لمعنى التقوى، حققه معسكر الإمام الحسين. فالتقوى هنا ليست تقوى الفقهية، حيث جدول محدد من الذنوب وحراسة الذات من مؤثرات خارجية، فالتقوى بهذا الفهم معنى سلبي، أما تقوى معكسر الإمام الحسين فهي تقوى إجابية، تقوى تفتح الذات على متغيرات الواقع، بل تخترقه وتشارك في تركيبه وتغييره. فكانت عاشوراء مدرسة لوعي النجاح والتفوق والأمل وقوة المشاركة في روح الفرد أو في سلوكية المجتمع.

عاشوراء: مسيرة في المتغير الكتابي:

لقد استقطبت ملحمة كربلاء منذ البداية الكوادر الثقافية والاهتمامات الكتابية. وقد باتت قسماً قائم بنفسه كحقل من حقول الثقافة. وهذه الكتابات على مناحٍ شتى:

١ ـ فهناك كتابة المقامات لأهل البيت عليهم السلام. وبيان مكانتهم المركزية في القرآن وسيرة النبي صلى الله عليه وآله.

٢ ـ الكتابة الوعظية. وهي الكتابة التي غايتها ترتيب معلومات صالحة للمجالس الحسينية الوعظية وبما يتلاءم ومهام الخطابة.

٣ ـ وهناك الكتابة التدوينية. حيث ينصب الاهتمام بتوثيق الروايات التاريخية.

٤ ـ وهناك الكتابة السياسية. ويجري هنا مقاربة نهضة عاشوراء باعتبارها نهضة إصلاحية ضد نوع معين من الحكم والإدارة السياسية.

٥ ـ كتابة المستشرقين أو المنتمين لأديان أخرى تأثرت بالإمام الحسين وآمنت بأهميته الروحية والفكرية، فكتبت عن ثورة كربلاء بما يتناسب ومرجعياتها الدينية ومحيطها الثقافي.

٦ ـ الكتابة الموسوعية. وهي نوع من الجهد في تجميع كافة المقاربات والقراءات والتدوينات عن هذه الملحمة.

٧ ـ الكتابة الأدبية، وهي على أقسام كثيرة تبدأ بالشعر

الكلاسيكي القديم مروراً بالشعر المعاصر، وأدب القصة والرواية والمسرح، وانتهاءاً بقصائد الشعر الشعبي.

٨ ـ الكتابة التحليلية الفلسفية. وهي على نوعين: قراءة تحليلية فلسفية تقليدية. حيث تنشغل بمسائل علم الكلام القديم أو الرجوع في استنباط الحلول للإشكاليات إلى قواعد الفلسفة المدرسية المعروفة.

٩ ـ وهناك القراءة التحليلية الفلسفية المعاصرة. فيجري استثمار العلوم الإنسانية الجديدة في استنباط حلول جديدة وصياغة مبتكرة لأهداف ثورة الطف بما يتلاءم وهموم الإنسان المعاصر.

وبحق إن تجدد واختلاف المناهج الكتابية بين الباحثين كل هذه المدة الطويلة لثورة الإمام الحسين، لهو من الأدلة الدامغة على عمق وشمولية هذه الثورة وإنها ليست حادثة تاريخية يمكن مقارنتها بأي حادثة شبيهة. فكلما توسعت العلوم وتطورت المناهج وتجددت الملاحظات، نخرج بقراءة جديدة لهذه الثورة وبمعانٍ أكثر تألقاً، حتى لكأن الزمن والعلم مجرد تجديد في قدرة الابصار والملاحظ لواقعة هي أكبر من التاريخ وأوسع من التدوين.

وضمن الكتابات الكثيرة التي وصل بعضها بجودته إلى مستوى خاص في الأهمية كتابيّ المرجع المفكر السيد الشهيد محمد محمد صادق الصدر: «أضواء على ثورة الإمام الحسين» و«شذرات من فلسفة تاريخ الإمام الحسين». وكتاب الدكتور الشهيد علي شريعتي «الحسين وارث آدم».

فمقاربة هذين العلَمين تعد مقاربة جديدة ذات آليات ورؤية ونتائج خاصة غير معروفة من قبل. وبالرغم من أهمية هاتين المقاربتين إلا أنه لم توجد قراءة ومراجعة حقيقية لهما. وقد اخترنا أن نقوم بعرضهما هنا مع الحرص على بيان أهم أركان رؤية كل قراءة، وعدم الاعتماد على الكتب الثلاثة فقط وإنما ربطهما بأفكار الشهيدين بما لهم من تراث فكري مترامِ الأطراف والتنوع. حيث يجب الاحتياط من الابتسار والاتكال على القراءة المتعجلة في تقديم أفكار الآخرين، خصوصاً المفكرين الذين لهم مشاريع فكرية متكاملة. وهذا لايعني أننا اكتفينا بالتلقي السالب أو المتفرج، وإنما منحنا الأمر بعض الملاحظات الإشكالية والتصحيحية، كما إننا وسعنا الأمر بربط المسألة بجموعة كبيرة من المفكرين الغربيين والعرب، وذلك لما تنطوي عليه قضية الإمام الحسين وثورته من بعد إنساني كبير لا زالت العقول المستنيرة والضمائر الحية، تجد فيه المعين الذي لاينضب. وهذا ما عمق النقاش أكثر وجعل جدل الأفكار يشتد فثمة جملة من الاختلافات وجملة من التطابقات، بحيث تحولت عاشوراء إلى بحر خضم لرقي الفكر النقدي وتطوير سبل التعارف والحوار واكتشاف المزيد من كنوز النظريات والأفكار، فكانت عاشوراء تطبيق عملي للأخوة الإنسانية واحتواء الإبداع أياً كانت هويته، وفي هذا برهان جلي على عالمية خطاب هذه المدرسة.



الفصل الأول

مقدمات لقراءة جديدة

كربلاء قضية وليست حدثاً:

من الجور على التراث ومن التجني على الحقيقة، أن تكون قضية كربلاء، قضية خاصة بمذهب ما. فالتراث هو تراث الأمة، والحقيقة هي روح الإنسانية. وقضية عاشوراء الحسين أوسع بكثير من أن تكون مذهبية تتعلق بتاريخ طائفةٍ ما. فالإمام سابق لنشوء المذاهب فكيف بات الحسين قضية مذهبية؟!.

وقضية كربلاء الطف أعمق من أن تُحدد بخارطة جغرافية ضيقة، ومتى كان الوجدان الإنساني المرتبط بقضايا العدل ومقاومة الظلم، مرهونة بقومٍ دون قوم، وبلدٍ دون بلد؟!.

ومن الغريب فعلاً أن يقوم بعض المُتسمين بالسلفية أو الوهابية أو مشابه من تسميات لم تكن تعرفها الأمة يوماً ومع ذلك يدعون الأصالة والارتباط بالماضي فقط، إن إعادة التذكير بقضية كربلاء فيه تشهير ببعض الصحابة وأنها بالتالي قضية تخص الشيعة فقط. ولا نعلم حقاً ماذا يقولون إذن بموقف عبد الله بن الزبير وعبدالله بن عمر؟!

إن قضية كربلاء هي قضية الإسلام وليست قضية مذهب، كربلاء أحياء لمقاصد القرآن وليس تأسيس لطائفة. كربلاء هي إعادة للفكر الإسلامي بصبغته الإنسانية المتعالية فوق المذاهب والاختلافات، حيث يتم إعانة الإنسان، أياً كان، فمبدء رفع الظلم وقبح الفساد، لا تختص بانتماء مذهبي أو سياسي، وإنما هي مبادئ أساسية في الفكر الإسلامي بصيغته المحمدية الأولى:

«إن ثورة الحسين إسلامية وفكراً إسلامياً. ومن كونها كذلك فهي من إسلام القرن الأول الطاهر البهي. الإسلام الإنساني الذي يختص الناس جميعاً حتى غير المسلمين، ويريد ويقر العدالة والكرامة والحرية للناس جميعاً حتى لغير المسلمين»[1].

وقضية الإمام الحسين ليست قضية وقتية أو حادثة زمنية وقعت في غابر التاريخ يسهل نسيانها، كي لا نقع في براثن الماضي كربلاء «قضية» وليست حادثة. وهي مسألة مبدأ وليست مسألة تاريخ أو هوية. ومن الأدلة الواضحة على ذلك أن لا نكتفي بالعناصر القومية والانتمائية المختلفة التي شاركت في نصرت الإمام الحسين أو وقفت ضده، وإنما أيضاً خطابات الإمام الحسين كانت خالية تماماً من الاحتجاج بمسألة الإمامة مثلاً أو أي مسألة أخرى يمكن أن توهم أن قضية كربلاء تضمر مشروعاً له هوية طائفية معينة. جميع خطابات الإمام الحسين منذ رفضه للبيعة في المدينة إلى خروجه من مكة وحتى مصرعه المقدس على أرض

---

(١) محمد مهدي شمس الدين: «عاشوراء» ج١. ص٨.

الطف، كانت موجهة ضد الظلم والفساد ورفض عبودية الإنسان والتلاعب بالشريعة والقرآن ومقاصد الدين ودكتاتورية السلطة. كان الإمام يعالج على طول هذه الساحة الممتدة بين بلدان متعددة قضية واحدة هي حرية الإنسان وخطورة نكث العهود والمواثيق السياسية، فنكث مبدء صلح الإمام الحسن كان معناه تحول الدولة إلى شخصانية فردية لاتعترف بقانون أو معاهدة ويفتح السياسة على حرب أهلية لاتتوقف إلا كي تبدء من جديد، وهذا ما حدث فعلاً، وما زالت تعاني منه الأمة حتى هذه اللحظة.

وقضية كربلاء بما حققته من منعطف لازالت تمنح طاقة من الأمل لمن يريد القراءة وتعلم الحرية، فالحرية لا تُمنح أو يتصدق بها أحد، وإنما تُصنع بقوة الإرادة الحية ويقطف ثمرتها المقدسة القلوب السليمة والأرواح المتألقة الضمير. كربلاء هي درس قرآني وليست قضية فقهية خلافية كي تكون مذهبية. وهي معلم إنساني يعتز به الفكر البشري وتطور الصمود الروحي لكل الثائرين في العالم، فكيف يمكن أن تكون أقليمة؟!

خط الإنقاذ الحسيني:

لقد كانت للإمام الحسين مكانة متميزة لدى نبي الإسلام، وقد كرر أبو هريرة التأكيد على اهتمام النبي ﷺ، بالإمام الحسين ومنحه مكان خاصة به[1]. فالإمام الحسين لحم النبي ودمه، وامتداده الجسدي والمعنوي، وذلك بنص القرآن الكريم ﴿أَبْنَآءَنَا

(١) ابن عساكر ج٤ ص٢٠٨. التذكرة: ٢٣٢.

﴿وَأَبْنَآءَكُمْ﴾ حيث جلبه النبي في يوم المباهلة كناية عن كونه جزء من النبي حيث إن المبالهة تعريض الشخص نفسه للخطر، فإذا هو عرض نفسه وأهل بيته للخطر دل ذلك على صدقه، كما نبه الزمخشري على ذلك في تفسيره. ومواجهة الحسين لرجال الكنيسة (وليس لدين السيد المسيح) عنصر مثير للتأمل، فالإمام الحسين واجه رجال الكنيسة وهو لما يزل في طور الطفولة والصبا، وواجههم وهو يقوم بفتح القسطنطينية، وهو في ريعان الشباب والفتوة، وواجههم وهو ثائر ضد رجالهم وموظفيهم المتسترين الذين هم بنو أمية، وهو في بداية الانتقال إلى الكهولة حيث اختلط شيب العُمر بدم الشهادة.

الوعي الرسالي ضد ذهنية الوصايا:

وقد كان الإمام الحسين صاحب موقف نقدي وتمردي على أولياء الباطل منذ بداية انحراف مفهوم الإمامة والقيادة في المجتمع الإسلامي[1]. فالإمام الحسين كان إذن معارضاً منذ البدء مفهوم الوصايا على المجتمع وإلغاء صوته من خلال آلية البيعة. وهي الالية التي اعتمدتها العناصر الطبقية المعادية للإسلام. ومن هنا وجد الإمام الحسين أن البيعة ليزيد بن معاوية ترسيخ لقوة هذه العناصر الشريرة والمنحرفة[2]. وحفاظاً على حرمة المدينة المنورة

---

(١) الإصابة: ج١، ص٣٣٣.

(٢) أسد حيدر: «مع الحسين في نهضته» ص٢٣. دار التعارف ـ بيروت، الطبعة الثالثة.

الرمز الأول للإسلام، انتقل إلى العراق كي يوّسع صدى حركته فلا تطمسها السلطة أو يحاصرها التاريخ[1].

لقد كانت كربلاء عودة الوعي الرسالي، إزاء ثقافة التزوير التي تجسدت بصورة واضحة في يوم رفع المصاحف كي يتم قتل القرآن بتحريف القرآن، ويتم تصفية الإسلام باسم الإسلام، بحسب آلية أن المفاهيم يتم اغتيالها بوساطة ذات المفاهيم، أما الآليات الخارجية فإنها لاتستطيع أن تقتل المفاهيم وإنما العكس هو الذي يقع بحسب ما تكلمنا عليه في بحوث سالفة[2].

وقد كانت ثورة الإمام الحسين ثورة لإسقاط الأقنعة التي حولت الثقافة السائدة للبلاط والسلطة إلى لافتة مزيفة هي الإسلام، فالحسين حارب هذا المفهوم السائد[3]. وأقام بثورته منعطف لإعادة الأمة إلى صراط الحقيقة. ولقد كان معاوية متيقن أن حداثة المجتمع بالإسلام، ستجعله يمرر مفهوم البيعة وتأسيس النظام الوراثي بسهولة، بعدما تم تمهيده من توطين مفهوم الطبقية على يد عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، ولا توجد مشكلة في ذلك إلا مشكلة الصخرة الصلبة المتمثلة بالأئمة من أهل البيت عليهم السلام. وهذا طبيعي فمعاوية والذين ولوه والذين دافع عنهم ودافعوا عنه، يدركون أن ليس ثمة أمر أوصلهم إلى السلطة سوى

---

(١) محاضرات الوائلي، ج١ ص٨٦. إشراف مصطفى الشيخ عبدالحميد. منشورات شركة دار المصطفى لإحياء التراث، ومؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر ٢٠٠٤.

(٢) عبداللطيف الحرز: «محمد الصدر كفاح الجماهير».

(٣) عبدالحسين دستغيب: «سيد الشهداء» ص٦، ترجمة نبيل مسعودي. دار البلاغة - بيروت ١٩٩١.

عملية التزوير الثقافي والتصفية الجسدية التي راح أول ضحاياها الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري. إن مفهوم العدل والحرية هما أخطر المفاهيم التي كانت تهدد آلية البيعة ونظام التوريث الطائفي والأسري.

المسكوت عنه في استهداف التشيع:

لقد كان من الطبيعي أن يتم استهداف بيت علي بن أبي طالب، فهو بيت القيم الروحية وخط الرسالة، بينما خط الخلافة والبيت الأموي يمثل بيت الانحراف والزنى واللهو واللعب منذ جدهم «أمية» الذي هرب إلى الشام بعدما تصارع وتآمر ضد هاشم، فهرب إلى الشام وهي حادثة غير بريئة تدل على مدى ارتباط الأمويين بالنساطرة والنصارى. بل إن محمد صادق الصدر يعتقد أن حضور النساطرة المريب هذا، هو من جملة الأدلة على وجود مخطط أجنبي غربي لتصفية أهل البيت عليهم السلام[1]. وقد كان أمية هذا يلقب بالمعاهر أو العاهر، ثم هند زوجة أبو سفيان، صاحبة المتاجرة ببيوت الرذيلة، ووصولاً إلى يزيد الزاني بالمحارم واللهو مع المخنثين والقرود[2].

وقد كان لمروان بن الحكم التأثير الكبير على عائشة سواء في حربها ضد الإمام علي أو في منعها من دفن الإمام الحسن بقرب جده النبي الأكرم. حتى أبو جهل نفسه لم يكن ليكون بكل

---

(١) محمد الصدر: الأعمال الكاملة ـ منبر الصدر: ص٢٧.

(٢) الطبري: ج٧، ص٤.

هذا العداء للنبي ﷺ لو لم تكن زوجته هي «أم جميل» بنت حرب، فهي التي كانت تغذيه بكره النبي والإسلام. فالقرآن حينما يتكلم عن أبي جهل يقوم بالتعرض لزوجته على غير المعهود للخطاب القرآني ويذكر أنها (حمّالة الحطب) وأن (في جيدها حبلٌ من مسد).

ونحن إذا أخذنا بحرفية الكلام لانخرج بمعنى فكون المرأة تحمل حطباً في القبيلة ليس عيباً، وأن تضع في رقبتها حبلاً، هو أمر مألوف أيضاً، والقرآن لايعيب العمل الشريف أبداً. لكن التدقيق يرينا براعة القرآن الكريم. فالخطاب القرآني يشير إلى أن أبا جهل بات «أبو لهب» فهو يحترق وأن الذي يقوم بإحراقه هي زوجته التي تجلب الحطب لحرقه بنار الحقد ضد النبي فيكون مصيره جهنم. وأنها صاحبة الحبل أي صاحبة العلاقة تربط أبو جهل ببني أمية قبيلة الحرب والنار. وقد كان بنو أمية وحدهم من تخلف عن حلف الفضول في مرحلة ما قبل الإسلام[١].

وقد كان أبو سفيان في حروب الشام يهتف لجيش الروم ومشجعاً لها ويصيح: أيه بني الأصفر[٢]. من الواضح أن هنا صِدام جذري وعميق بين الطهارة والنجاسة، بين النور والظلام. فكان من الطبيعي أن يثور الإمام الحسين كي يبقى المشعل المنير في ليل المسلمين الطويل. فهم إلى اليوم لا زالوا يعانون من اضطهاد الطبقية ونظام التوريث والتصفية الجسدية والتمييع القيمي

---

(١) عباس محمود العقاد: «الأعمال الكاملة ـ الإسلاميات ج٢، ص١٨٣.

(٢) العقاد «الأعمال الكاملة ـ الإسلاميات ج٢» ص١٧١.

والأخلاقي. وليس من الغريب أن نجد أن الذين وطأوا صدر الإمام الحسين بالخيول كانوا عشرة أشخاص بأجمعهم كانوا أولاد زنى[١]. وقديماً كان لبني هاشم حراسة البيت الحرام وحفظ الفضيلة وحماية الضعيف، ولبني عبد شمس التجارة والتنفع بدور الدعارة واستغلال الآخرين.

وإذا كان يزيد يرتبط من جهة الأب بأمية وهو عبد ذا تربية رومية، وكان شخصاً ماجناً خنيثاً طلق زوجته وزوجها لعبد ذكوان[٢]. ومن جهة الأم ببني كلب الفاقدة الارتباط بالإسلام بسبب عقيدته الموروثة والتي هي المسيحية، كان من المنطقي أن تكون له حماسيات عدوانية هدامة ضد الإسلام، سواء بحس الثأر من الدين الجديد المنتصر على ديانة الأم، أو بحس المتعة الصرفة في تحطيم الآخر.

(ومن بديهيات علم الاجتماع أن انسلاخ شعب كبير من عقائده يستغرق زمناً طويلاً، بين معاودات نفسية ورجعات ضميرية وذكريات وجدانية. وبالأخص إذا كانت عقيدة سيطرت على الأفكار والعادات والعرف العام)[٣].

لذا قام يزيد بإجلاء القوات الإسلامية من المناطق المسيحية كقبرص كما سبق لأبيه معاوية أن دفع الجزية إلى ملك الروم رغم ما في ذلك من مخالفة شنعية للإسلام، وأم يزيد ميسون بن مجدل

---

(١) الطبري: ج٦، ص٣٦١.
(٢) العقاد: الإسلاميات ج٢ ص١٨٣.
(٣) عبد الله العلايلي: «الإمام الحسين». ص٥٨.

الكلبية، بدوية تكره الحضارة حتى أنها كانت تفضل خيام الصحراء على القصور الباذخة، ومنها أخذ يزيد القسوة والجفاء. كما تربى يزيد على يد النساطرة، والمجوس، كسرجون مستشار معاوية الأثير. وحتى الكادر الدعائي الأموي كان يعتمد على عناصر غير إسلامية كالشاعر الأخطل النصراني العقيدة، فقد كان يزيد بهذا يحمل حقداً مضاعفاً على الإسلام وبالأخص أهل البيت عليهم السلام. فالإسلام هو الذي حرّم الزنى والربا وسد موارد آل بني أمية الاقتصادية، وهو الذي قلص مساحة الكنيسة برسالته الجديدة وقد كان الإمام علي بن أبي طالب بسيفه وحكمته، هو يد الإسلام الضاربة والواعظة، وهذا ما يفسر تلك الممارسات البشعة في واقعة الطف بحق الأجساد من الأبطال وذبح الأطفال الرضع وهتك النساء والمرضى.

وهذا الحقد ليس حقد زمني مرتبط بيزيد وإنما هو خط أموي متكامل، ارتبط بذكرى يوم السقيفة حيث أنكر أهل البيت عليهم السلام، والأنصار أن يصل غير بيت النبي إلى دفة الحكم، فهذا معناه انتصار عوائل المشركين، فأخذ الخط الأموي ينتقم من جميع العناصر الدينية الحقيقة ويقوم بتصفية الشخصيات الإيمانية والرسالية، وهذا ما تبين في واقعة الحرّة واستباح المدينة ثم تخريب الكعبة والبطش بالكوفة. فمأساة كربلاء مرتبطة بانتهاك مكة والمدينة والكوفة، حيث دأب الخط الأموي على انتهاك الشعور الديني لكون هذا الشعور يمثل خطر على أهليتهم للقيادة والحكم على المسلمين وهم أهل بيت الشرك والزنى والفجور.

فالمعركة ليست بين يزيد والحسين وإنما بين الجاهلية والإسلام. وهذه الحقائق واضحة في تكرارها لدى الديكتاتوريات المعاصرة وتجار فتاوى شيوخ النفط، فهم بين أولاد غير شرعيين، كصدام حسين، أو شهوانيين حد البهيمية يرون في خط التشيع خطر الطهرانية القرآنية، لذا يجب الوقوف ضدها وسرقة مكاسب الثورة والتغيير منها وتصفية وتشويه قياداتها ومفكريها.

السقيفة وتاصيل طريق الانحطاط العربي:

وفي الحقيقة إن يوم السقيفة هو الذي أسس سياسة الطمع في منصب الخلافة وسياسة الانقلاب المفتوح لكل طامع في السلطة، فاقصاء أهل الحق عن مناصبهم هو الذي جعل منصب الخلافة شاغراً يتملكه كل من هب ونب، بلا مراعاة لشروط أو الاحتكام لقاعدة. فكانت معركة الإمام الحسين ضد الحكم الأموي هي معركة المبدء ضد التشهي والطمع. وهو تشهي الضباع الغادرة وطمع الثعالب المكارة التي اعلن عنها أبو سفيان منذ بواكير عملية الانقلاب على الرسالة الإسلامية وتحويلها طقوس فارغة وسلطة جائرة، فقال بعد إعلان عثمان بن عفان للخلافة، بفرحة غامرة، إحساساً بالنصر على النبي الكريم:

(يا بني أمية تلقفوها تلقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان، ما زلت أرجوها لكم ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة).

وفي قوله «فالوذي يحلف به أبو سفيان» إعلان عن استمرارية الكفر كخط محارب ضد الإسلام رسالةً وقيم

وشخصيات. وفي قوله «مازلتُ أرجوها لكم» ما يشعرنا بأن الحزب الأموي كان موجوداً من قبل، وكان يعمل تحت سُتر الخفاء ويحيك في الظلماء. وإلا فبأي سبب كان يرجوها لهم، وليسوا بأهل سابقة في الإسلام ولا أيادي لهم معروفة سوى المظاهرة ضد الله ورسوله؟![1].

وقد تم إبعاد بني هاشم بالكامل من أية وظيفة في زمن الخلفاء الثلاث وتم منح بني أمية كافة الوظائف المهمة، فالأمر لم يكن يخص معاوية فقط. لذا وقف أبو سفيان على قبر حمزة وخاطبه: (أبا عمارة قاتلتنا على أمرٍ صار إلينا).

ولقد التف حول يزيد من هم على شاكلته، كمروان بن الحكم وهو ابن الزرقاء، الداعرة الشهيرة، وعبيد الله بين زياد بن مرجانة وهي مجوسية العقيدة كان بينها وبين سرجون علاقة واتصالات غريبة[2]. وهؤلاء حوّلوا نظام القضاء الإسلامي إلى مجموعة أحكام عرفية يتصرفون في الدماء والأعراض والأموال، بحسب رغبات المحتكر للسلطة. فكانت ثورة الإمام الحسين هي ثورة إحياء النبوة بوجه تجديد القبلية والعشائرية. ثورة المبدء والإيمان، ضد ذهنية الحسب والنسب. ثورة إحياء الإسلام ضد عقلية الانقلاب الجاهلي.

---

(١) عبد الله العلايلي: الإمام الحسين، ص٣٠.

(٢) خالد محمد خالد: «أبناء الرسول في كربلاء» ص٩٢.

تصادم تيارات لا صراع أشخاص:

فالإمام الحسين شخصية عظيمة تجلت فيه عظمة الشخصية، فهو من بيت فوق الشهوات والتعلقات المادية والشهوية، بخلاف البيت الأموي حيث التعلق بالسلطة والطعام حتى ضرب بمعدة معاوية الأمثال، أما تعلقهم بالنساء فهم قد بلغوا مستوى قياسي فاقوا بهم أشرّه البهائم. وقد تضاعف حقد يزيد على الإمام الحسين ليس بسبب السلطة فقط، وهو العامل الذي تكلم به جميع الباحثين، وإنما لسبب آخر لم يتم الاهتمام به كثيراً، ألا وهو حقد يزيد الشخصي على الإمام الحسين لكونه كان يعشق زينب بنت أبي الدرداء الذي احتال أبوه معاوية في تطليقها من زوجها عبد الله بن سلام، بمعونة أبا هريرة، وكانت مشهورة في الأمصار بجمالها الاستثنائي[1]. لكنها اختارت الإمام الحسين، فتزوجها الإمام الحسين ولم يدخل بها، ثم طلقها وأرجعها إلى زوجها ولم يقبل أن يأخذ المهر الذي دفعه إليها رغم أنه كان كبيراً جداً، وقال إنه فعل ذلك لله سبحانه وأن يبتغي بهذا العمل الثواب فقط.

وإن كانت حادثة الزواج لدى الإمام الحسين حادثة عابرة فإنها لدى النفس الوضيعة المأخوذة بالشهوات واللهو كشخصية يزيد، قضية كبيرة بل هي كبيرة بلا محورية. لذا لايمكن أبداً الموافقة على الرأي القائل أن يزيد لا يمكن أن يكون بكل تلكم

(١) ابن قتيبة: «الإمامة والسياسة» ج١ ص٣٠٤، وشهاب الدين النويري «نهاية الأرب» ج٦.

الوحشية والبربرية مع الإمام الحسين وأهل بيته وأنصاره، وأن الأمر من فعل عبيد الله ابن أبيه وعمر بن العاص والذين معه. فكربلاء هي التقابل والتضاد بين تربية النبي حيث كان الحسين ربيب النبوة المحمدية والولاية العلوية، والطهارة الفاطمية، وبين بني أمية حيث كان يزيد ربيب النساطرة والمهرجين ومستنقع النجاسة لهند وأبي سفيان ومعاوية وبني كلب. فالحسين قادم من بيت كله عطاء ونبل ومحن وصبر وثقافة وفكر. ويزيد قادم من بيت مجموعة من الوحوش كلها أنانية وسرقات وشخصيات تربت وسط الرذيلة والرخاء والخبث والتآمر على المصالح العامة.

وقد عاصر الإمام الحسين جيل بني أمية منذ أيام السقيفة وشارك في الدفاع ضد مؤامرة اغتيال عثمان من قبل مروان وعائشة ومعاوية، وتيقن من أن الاصلاح غير ممكن ما دامت سلطة بني أمية مستمرة. وكان على الإمام الحسين أن يعلن الثورة حيث نكث معاوية الصلح والعهد الذي عهده مع الإمام الحسن، وكان عليه أن يخرج من مكة كي ينقذها مع الانتهاك، خصوصاً وأن بني أمية أشاعوا الرذيلة والمخنثين وشعراء المجون فيها كي تذهب هيبة الإسلام[1]، فكان من الخطورة أن يتم قتل الإمام الحسين في مكة وهذا ما حصل فعلاً حينما استخدم ابن الزبير الكعبة حصناً له فقام الأمويون برجمها. فبينما تحصن عبد الله بن الزبير بالإسلام كي يحفظ شخصه، قام الإمام الحسين بجعل شخصه حصناً للإسلام كي يحفظ قدسية القرآن والرسالة.

---

(١) كما تدلنا رسالة القيان للجاحظ، مثلاً، على ذلك.

ونحن اليوم إذ نجد الوحدة تتطور في الصناعة وأدوات الاتصال ومراكز التجارة والإعلام، لكن نوع واحد من الوحدة مفقود ألا وهو وحدة الضمير الإنساني وحس المسؤولية تجاه الإنسانية ذاتها. فالإنسان اليوم يقوم بإحياء كل شيء وربط أجزاء الأرض بعضها مع البعض الآخر، لكن البشرية تزداد بعداً أكثر فأكثر عن إنسانيتها، فكم نحن بحاجة إلى روح الحسين، تلك الروح التي ضحت بكل شيء من أجل روح الجماعة وجعل الترابط بين الإنسان والإنسان نوعاً من «العهد» الذي لا يُنقض.



الفصل الثاني

سجود التاريخ في محراب الشهادة

مكانة الحسين لدى الآخر:

يعبّر الباحث الانكليزي جون آشر:

(إن مأساة الحسين تنطوي على أسمى معاني الاستشهاد في سبيل العدل الاجتماعي).

فالقضية تتجاوز الانطباع الشخصي إلى الشأن العام. وبهذا بقي اسم الحسين يتسع ويمتد مع تطور الزمن واستمرار حوادث التاريخ:

(الحسين عليه السلام ليس غريباً أن يكون حيث نتحدث عنه، فإن في إنسانيته السامية تلتقي شعلة النبوة المقدسة بالفطرة المثالية الفذة، وتزدحم المعاني والصورة، ورموز العالَم المجهول. فهو روح إلهي في طبيعة بشرية، ومعنى غيبي في حروب من أشباح الوجود)[1].

---

(١) عبد الله العلايلي: «الإمام الحسين» ص٨. دار مكتبة التربية ـ بيروت ١٩٨٦.

فكان تاريخ استشهاد الإمام الحسين، تاريخ اغتيال قضية، وبتعبير للمستشرق فيليب حتي:

(ففي هذا اليوم الذي قُتيل فيه الحسين بن علي وهو العاشر من محرم، أصبح يوم حداد ونواح عند المسلمين .. ففي مثل هذا اليوم من كل عام تمثل مأساة النضال الباسل والحدث المفجع الذي وقع للإمام الشهيد، وغدت كربلاء من الأماكن المقدسة في العالم، وأصبح يوم كربلاء وثأر الحسين صيحة الاستنفار في مناهضة الظلم).

ويقول «ماريين» الألماني: (إن الحسين كان يبث روح الثورة في المراكز الإسلامية المهمة كمكة والعراق وأينما حل، فزدادت نفرة المسلمين التي شكلت مقدمة الثورة على بني أمية).

وتقول الكاتبة الانكليزية فريا ستارك: (مأساة الحسين تتغلغل في كل شيء حتى تصل إلى الأساس، وهي من القصص القليلة التي لا أستطيع قراءتها قط دون أن ينتابني البكاء).

ويحدد المستشرق الأمريكي غوستاف غروينيام:

(إن وقعة كربلاء ذات أهمية كونية، فلقد أثرت الصورة المحزنة لمقتل الحسين الرجل النبيل الشجاع في المسلمين تأثيراً لم تبلغه أية شخصية مسلمة أخرى)[1].

يقول المؤرخ الانكليز القدير «جيبون»:

---

(١) للمزيد من أقوال وآراء المفكرين الغربيين والشرقيين راجع: عبداللطيف الحرز: «عاشوراء جرأة الحرية» ص٢٦. دار المحجة البيضاء ـ بيروت ٢٠٠٩.

(إن مأساة الحسين المروعة، بالرغم من تقادم عهدها وتباين موطنها، لابد أن تثير العطف والحنان في نفس أقل القراء إحساساً وأقساهم قلباً)[1].

فعاشوراء هي طريق الفتح الأخلاقي، الحسين هو السبيل الواضح لمركب البشرية على شتى انتماءاتهم وتوجهاتهم:

(فما أجدر بالبشرية وهي تجتاز في هذا العصر المظلم أخلاقياً واجتماعياً وسلطوياً، درب آلامها، لأن تتوجه نحو منارة الحسين كيلا تضل، وتتمسك بأطواق مبادئه كيلا تغرق، وتسترشد بصرخته كي تبعد عنها وحش الضلالة وثعابين الظلم والإذلال)[2].

والملاحظ أن ثورة الإمام الحسين، متعددة الخطاب. حيث يفهمها الإنسان العادي، ويستزيد منها العالم المختص. وهي متعددة الجوانب، فهي أخلاقية وسياسية واجتماعية وثقافية وفلسفية:

(وعلى أي حال فمن الواضح أن الحسين عليه السلام يفهمه كل شخص بمقدار مستواه وثقافته وقناعته، وأي من ذلك حصل كان خيراً ونعمة. وكان مؤثراً في ايجاد الهمة نحو التمرد على الظلم والتضحية بالنفس والنفيس، في سبيل ايجاد العدل حسب اختلاف مستويات إدراك هذا العدل.

---

(١) الدكتور لبيب بيضون: موسوعة كربلاء ج٢، ص٢٣٦. منشورات طليعة النور ـ قم، إيران.

(٢) أنطوان بارا: الحسين في الفكر المسيحي: ص١٨٨.

حتى من الممكن القول أن كل الثورات والتمرد في التاريخ، حتى إلى العصر الحاضر، بل والمستقبل منتسبة بشكل واضح أو غامض إلى ثورة الحسين عليه السلام، بعد أن أعطى الأمثولة العليا في ذلك.

حتى من يكون على مستوى الدنيا أو على مستوى الالحاد أو أديان أخرى. فإنه لا أقل أنه يعرف الحسين عليه السلام كقائد وكمصلح وكمضحي في سبيل إقامة الحق والعدل اجمالاً، وهذا يكفي في التحريك نحو الهدف)[1].

تأسيسات في الوعي الثوري:

لقد قدم الإمام الحسين بياناً ثورياً وميزان عمل حينما حدد بقولته (ومثلي لا يبايع مثله) حيث إن القضية ليست قضية شخصية بين الحسين بن علي ويزيد بن معاوية، وإنما بين خطين ومنهجين، لذا عبّر الإمام الحسين بمفردة «المَثل». فإذا كان الإسلام السياسي قام على فكرة البيعة للخليفة باعتباره نموذج الإسلام الذي يجب أن يُفتدى من قبل الأمة المسلمة، فإن ثورة الإمام الحسين بينت زيف هذا الخليفة وأن البيعة له ما هي إلا بيعة للشيطان التي يجب على الأمة أن تجهد في الندم كعتبة لدرب تغيير الشخصية وعودة روح اليقظة فعندما:

«يكتشف الإنسان المسلم أن بيعة نفسه لخليفة غير أمين على

---

(١) محمد الصدر: الأعمال الكاملة ـ شذرات من فلسفة تاريخ الإمام الحسين: ص١١٩.

جوهر دينه كلّفه التفريط بعقيدته، وبيع نفسه للباطل الذي يمثله هذا الخليفة، وبالتالي كسب غضبة الله جراء عصيانه. فإنه يحتقر نفسه ويزدري قلة تعقله حينما بايع هكذا خليفة، ويتحرك ضميره ويتفاعل إحساسه بإزدراء نفسه ولومها، فيثور ويحطم أصنامه ويموت دون مبدئه راضياً مؤمناً.

وبدءاً من فرضية الندم ثم مراجعة النفس والوقوف على حقيقتها وحقيقة الأمور والظروف التي دوّمتها في دوامتها، وتبيان الحقيقة الساطعة مروراً بفترة المراجعة وكمون الأفكار والانفعالات، ونجاحها في تحويل صاحبها من إنسان خامل بلا عقيدة إلى إنسان ديناميكي معبأ بالمبادئ، فضلاً عن تحرك الظروف خارج نفس الإنسان وتفاعلها في نواح أخرى بما يدعم مبدأه الجديد وعقيدته المستيقظة. كل ذلك يزيد من تصميمه على استمرارية الاستسلام لهتافه الداخلي الذي يقوده إلى دروب لم يكن يحلم بالمسير بها ويفتح أمام بصيرته مغاليق كانت كالسد في وجهه، فيندفع بإيحاء من فقدان ثقته بما كان وانسجاماً مع هتافه الداخلي ورغبة منه في تغيير الأوضاع، إلى الثورة والتحطيم واقتلاع كل زيف من جذوره.

وشهادة الحسن عليه السلام في كربلاء وما تلاها من حوادث السبي، نجحت في إيصال الإنسان المسلم إلى بدء رحلة الألف ميل نحو تحرره وتمكين جذور عقيدته في نفسه بخطوة واحدة»[١].

---

(١) الحسين في الفكر المسيحي: ص١٤٢. الطبعة الرابعة ٢٠٠٦.

وقد كانت ثورة الإمام الحسين تمرد للطهارة الروحية تعبيراً عن ضمير الأديان والجوهر التوحيدي لكافة الأديان السماوية، فالحسين قضية ليست إسلامية فقط وإنما هي دينية إنسانية، ومن هنا نجد لها إشارات وتصريحات في كتب التاريخ القديم والنصوص الدينية الكبرى[1].

لقد أيقظ الحسين ضمير الأمة النائم ورجرج حالة الخنوع والكسل وحب السلامة:

(وخاصة حينما يسمعون قول الحسين عليه السلام: (ما خرجت أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً، وانما خرجت لطلب الاصلاح في امة جدي رسول الله صلى الله عليه وآله آمر بالمعروف وأنهي عن المنكر) أو يسمعون قوله عليه السلام: (والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أقر لكم إقرار العبد). وغير ذلك من الكلمات التي تلهب الحماسة في نفوسهم، لتحمل الأذى والموت والشهادة في سبيل رفع الظلم عن المجتمع، أو التقليل منه حسب الإمكان، وقد أعطى مثالاً واضحاً وواسعاً وعظيماً للتضحية في سبيل الدين والحق)[2].

لم يكن الإمام الحسين رجل السيف والثورة فقط، بل كان رجل الحوار والموعظة والتفاوض للحل السلمي أولاً. هذا ما تشهد له حوارات الإمام الحسين مع والي المدينة والحر الرياحي وحواراته مع الجيش وابن سعد، لقد كان الإمام الحسين رجل

---

(١) شذرات من فلسفة تاريخ الحسين: ص١٨.

(٢) المصدرنفسه ص٦٣.

الإصرار على الحوار حتى الساعات الاخيرة من حياته المقدسة. فالحوار مبدء قرآني والحسين رجل القرآن وممثله. في الحفاظ على عنفوان الإسلام وعزة الرسالة المحمدية. بالرغم من يزيد لم تكن له بيعة من الأمة ومن أي طرف ذا شأن فهو ليس بقائد سياسي ولا شرعي كي يعد أحد مهما كان باغياً بالخروج عليه على العكس الحسين كان هو صاحب الأمر حتى من وجهة نظر دنيوية صرفة، وذلك بمقتضى الصلح بين الإمام الحسن ومعاوية فيكون يزيد هو الباغي حتى من الناحية السياسة فضلاً عن الشرعية الدينية. فالحسين لم يكن فتنة وإنما ثار من أجل التصدي للفتنة، بل لأعظم فتنة لا زالت الأمة الإسلامية تعاني منها: فتنة التوريث السياسي، فتنة إدارة السلطة بالبطش والاستبداد والعمالة للقوى الأجنبية وخدمتها من أجل البقاء على عرش السياسة وضرب الشعوب.

بهذا تخرج ثورة الإمام الحسين من كونها حدث في الماضي إلى جزء من ثقافة الوعي بالمستقبل:

(ليست ثورة الإمام الحسين عليه السلام مجرد حدث تاريخي، ليست مجرد فعل ماض حدث وانقضى واستنفد دلالاته وأغراضه، وإنما هي فعل للمستقبل، وإن ارتكز على أسباب وعوامل تاريخية. فالفعل الحسيني هو فعل ثورة روحية، أخذ على «عاتقه مصير الروح الإسلامية» ومصير العدالة معاً.

ولذا كان فعلاً ميتاً ـ تاريخي بما هو وقود كل تاريخ أخذ على عاتقه مصير الروح، وبما هو فعل خصب بالحياة، وبقوة

العدالة. يختلج ضميره بكل مطامح السمو والعلاء، روحي هائل، تصاعد فيه قواه، متدفقة، حادة متوثبة، خالقة تبدع في كل طور من أطوار هذا التصاعد صوراً للوجود خصبة سامية، وقيماً للحياة جليلة عالية: في الإيمان بها، إيمان بإمكان خلق إنسانية عظيمة، يكون في تحقيقها تحقيق لأمثل حضور حضاري في الحياة. من هنا كان «كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء». فالفعل العاشورائي يتقمص في حضوره كل زمان ومكان، ويتلون مع كل زمان ومكان، ليأخذ منه قضاياه وتحدياته وأسئلته، ويجيب عليها الجواب المناسب)[1].

وحرارة القضية الحسينية في القلوب، ليست حرارة غضب عاطفة غير محسوبة، وإنما هو غضبة الحق المدروس:

(هذه نقطة لابد لنا أن نثير التفكير حولها، لأن الكثير مما نستهلكه خطابياً وحماسياً في المسألة الحسينية قد يطرح علينا مفاهيم معينة، ليست هي المفاهيم الدقيقة في حركية الإنسان المسلم، وعلينا أن نعرف جيداً حقيقة مهمة وهي أن الثورية لا تعني العنف دائماً. فقد يكون إنساناً ثورياً بأعلى درجة الثورية ولكنه هادئ بأعمق حالات الهدوء، باعتبار أنه يخطط للثورة بالطريقة التي توصل الحركة إلى أهدافها. وقد يكون هناك إنسان صاخب عنيف يتحدث بانفعال وبحماس دون أن تكون له علاقة بالثورة. لأنه قد يسقط الثورة في استراتيجتها بحماسه دون أن يقدم

---

(١) محمد حسين فضل الله: «من وحي عاشوراء» ص٢. دار الملاك ١٩٩٧.

إليها شيئاً. لسنا ضد الانفعال والحماس، ولكننا نقول: هناك حماس تختاره لأن الخطة تفرضه. وهناك حماس يفرض نفسه من موقع الانفعال. إننا ضد الانفعالات الطارئة التي تمنع الخطة من أن تحدد له موقعه. إننا ندعو إلى الغضب العقلاني الذي يخطط فيجعل لنفسه موقعاً في هذه المرحلة أو تلك. ليست المسألة أن يكون هناك هدوء دائم. المسألة أن يكون هناك حساب دائم، حساب الرسالة، وحساب المستقبل. عندما نكون الأمة التي تحسب حسابات الحاضر والمستقبل، وتعرف كيف تؤكد الخطة بشكل يمكن أن يجعل لكل مرحلة دورها ووظيفتها، عند ذلك سنكون الثوريين الذين يعرفون موقع خطواتهم، لأنهم يعرفون موقع أهدافهم)[١].

فالغضب والعاطفة للقضية الحسينية عبارة عن اتصال الشيء بذاته ووصل الشيء بما هو له. فالعاطفة هنا جزء من تكملة الجانب الفكري والعقلي، كي يتحول الفكري إلى تربية شعورية للذات. فالعقل بلا عاطفة كالعاطفة بلا عقل. حيث:

(يمثل الأسلوب العاطفي، لوناً من ألوان التربية الشعورية، الذي يحوّل القضية إلى قضية متصلة بالذات، تماماً كما لو كانت قضية من قضايا الحاضر، وهذا ما نلاحظه في المسيرة التقليدية لحركة الإنسان في ارتباطه بالمعاني الدينية. فإننا نجد الجانب الشعوري هو الذي يترك الإنسان في حالة استنفار دائم لحمايتها

---

(١) من وحي عاشوراء: ص١٠.

وتحركيها في الواقع، ومواجهة كل التحديات المثارة ضدها من قِبل الآخرين. تماماً كما لو كانت التحركات المضادة موجهة نحو مسألة شخصية. وهذا ما يحصل في المسائل الدينية والمذهبية مسائل حساسة في ساحة صراع. بحيث تتحرك الحساسيات في داخلها بالطريقة التي يتغلب فيها الإحساس على جانب الفكر، وتتطور في العمق الإنساني لتكون من القضايا السريعة في الإثارة والالتهاب والشديدة التأثير على مستوى الحوار والمواجهة (. .) إن التجربة الواقعة تؤكد هذا الاتجاه، فإننا نرى تأثير قضية عاشوراء في الواقع الإسلامي لا سيما في الوسط الإسلامي الشيعي، بالدرجة العليا التي لا ترقى إليها أية قضية أخرى من قضايا التاريخ الإسلامي المأساوي (. .) فهم يتحركون فيها كما لو كانت قضية ذاتية، وكما لو كانت شخصياتها متصلة بأوضاعهم الذاتية العاطفية، الأمر الذي يجعل أي مساس بها مساساً بالذات)[1].

وبهذا كانت قضية الإمام الحسين قضية تتغلغل في نفس الفرد وتكون أكثر القضايا قرباً للروح، لكن مع ذلك تبقى قضية الإمام الحسين ليست قضية ذاتية، وإنما هي قضية الإسلام الكبرى. فكانت قضية الإمام الحسين مزيج روحي اجتماعي بين قوة الآلام ووضوح مبدء الثورية والقيادية التي تقاوم كافة قوى الاستكبار في كل زمان ومكان. فالقضية الحسينية ليست حادثة مأساوية تاريخية، وإنما ثورة على مأساة الحاضر المعاصر.

---

(١) المصدر السابق: ص١٢.

فعاشوراء هو النبع الذي تعود إليه التجربة الإسلامية لمواجهة تحديات الواقع والانتقال من العُبرة إلى العِبرة وامتزاج العاطفة بقوة الحياة وتمثيل أعلى الأشكال الحضارية فيها. فالحسين مدرسة التقوى التي تمزج بين القول والعمل والنية والتحقق، وتجعل النفوس بنيان مرصوص في بنية الشعور، في إرادتها وأحلامها وطموحاتها، وبنيان مروص على الأرض في جهادها وتآزرها. فالنية تبدء بالتقوى، والإيمان يلازم الحياة الكريمة. فالحسين رمز مبدئية الحوار، وشرعية الثورة. الحسين هو القدوة في واقع الحركة والطموح. فمسألة الحسين ليست مسألة شخص وإنما قضية خط ومنهج. الارتباط بالإمام الحسين معناه ادامة العهد مع الرسالة الإسلامية في تغيير الحياة وإقامة العدل، عهد مع الإنسانية، بل عهد مع الحقيقة.

الجذر التاريخي للتناقض العلوي والأموي:

والإمام الحسين من بيت عريق بوفاء العهد ونصرة المظلوم منذ أن أسس جده هاشم «حلف الفضول» الذي قبلت به قريش أجمع ما عدى قبيلة عبد نوفل وعبد شمس آل بني أمية[١]. لذا ترسخ الوفاء عند هؤلاء والغدر عند أولئك، ولهذا رفض مسلم بن عقيل الغدر بعبيد الله بن زياد، وقال: إن النبي كان يقول (لا يفتك مؤمن)، فرفض الإمام الحسين البيعة لسلطة الفجور والظلم، مهما كان التهديد ومهما كان الإغراء، هو امتداد لفرض النبي

(١) أبناء الرسول في كربلاء: ص٨٢.

الكريم البيعة لقريش وتهديدهم وإغرائهم حتى كان النبي يقول إنه لن يترك الرسالة حتى لو وضعوا الشمس في يمينه والقمر في شماله أو يهلك دون هذا الأمر. وقد كرر الإمام الحسين ذات الموقف، فبقي الإمام الحسين رمز المقاومة حتى لو كان الثمن المال والنفس وانتهاك حرمة العائلة والأصدقاء بأبشع صورة. فالحسين هو وارث لواء الإباء الذي كان يحمله نبي الإسلام وباقي الأنبياء والصالحين.

وبما أن أهل البيت عليهم السلام، كانوا أهل بيت المبدء الصالح وحقيقة الوحي وجوهر الرسالة، وليس من الصحيح أبداً أخذ البعض بالتصويرات الخيالية حول ضعف شخصية الإمام الحسن، وأن هذا سبب خلافات مع الإمام الحسين، والعجيب أن يذهب باحث ذكي مثل عبد الله العلايلي[1]، إلى موافقة هذا اللون من التفكير السطحي!. وقد ذهب عباس العقاد إلى هذا الرأي أيضاً حتى أنه وصف الإمام الحسن بكونه «رجلاً سكيتاً يكره المنازعة ويجنح إلى العزلة»[2].

لقد كان كل واحد من أئمة أهل البيت، يجسد الرسالة بذات الهم والتضحية، لكن لكون كل واحد منهم عاش ظرفاً مختلفاً فقد اختلفت طريقة كل واحد منهم في الدفاع عن الإصلاح وقضية العدل. ولو أن الإمام الحسين كان متقدماً على الإمام الحسين لتخذ ذات الطريقة في معالجة الأمور:

---

(١) في كتابه «الإمام الحسين» ص٣٣١.

(٢) العقاد: «الإعمال الكاملة ـ الإسلاميات ج٢، ص١٧٣.

(كيف بدأ الإمام الحسين عليه السلام حربه من خلال سلمه؟ الإمام الحسن عليه السلام ومعه الإمام الحسين عليه السلام هادنا معاوية بن أبي سفيان لأن الجيش كان متعباً، والصورة كانت غير واضحة للناس بسبب الحروب التي امتدت من أول خلافة الإمام علي عليه السلام حتى استشهاده، بحيث حجبت عن الناس آنذاك الصورة الحقيقية التي يمثلها الحكم الأموي وبعده عن الخط الإسلامي، ومن تحرك في طريق الخط الجاهلي.

كان الناس يفقدون الرؤية الواضحة، فالحرب تشغل الناس ـ عادة ـ بالحدث عن هذا الفريق أو ذاك، تشغلهم بالأوضاع المتحركة، عندما ينتصر أحد هذين الفريقين. ولهذا لا يستطيع الإنسان أن يأخذ الصورة الواضحة في حالة الحرب. وكان المحاربون متعبين يخرجون إلى الحرب متثاقلين، وبهذا استفادت الرئاسات العشائرية التي كانت تعمل لمصالحها الخاصة من هذا التعب، واستطاعت أن تحوّل ذلك لمصلحة أطماعها وشهواتها، فكانت المعركة خسارة على مستوى القضية لا على مستوى الشخص فحسب. ولهذا أراد الإمام الحسن عليه السلام أن يعطي فرصة يعيشون فيها مع حكم (بني أمية) ليتعرفوا على خصائص هذا الحكم، ولتكون الثورة عند ذلك حالة طبيعية يعيشها الناس من خلال مفردات حياتهم الخاصة. وهكذا كان فقد بدأ الحكم الأموي يأخذ حريته في الحركة، وبدأ الناس من ذلك الوقت يعرفون الطبقية بين المسلمين، ويعرفون كذلك معنى أن يقرّب الإنسان لا لكفاءته، ولكن لعصبيته. وأن يُبعد عن المسؤولية حتى

لو كان كفوءاً، لأنه بعيد عن حركة العصبية التي كانت تسيطر على الواقع)[1].

فليس بين الإمام الحسن والحسين اختلاف وبينونة فيكون الحسين شخصية ثائرة والحسن شخصية مسالمة، وهو رأي بقي له صدى حتى في بعض الدراسات الحديثة كما هو حال خالد محمد خالد[2]، وعلى الرغم من أن خالد محمد خالد يعترف بجرائم معاوية، والتي منها قتله الإمام الحسن وحجر بن عدي، إلا أنه يستغفر ويدعو له بالمغفرة!![3].

بل إن خالد محمد خالد يقول:

(ونحن لا نريد الطعن في معاوية. فإن منهجنا أن نحترم كل الاحترام من صحب رسول الله ﷺ، وصلى وراءه وجلس بين يديه وقاتل تحت لوائه مفوضين أمره فيما يكون من خطأ إلى الله)[4].

ومثله عبد الله العلايلي في كتابه الإمام الحسين ص ٦٤، حيث يختم البحث بالترحم على الجميع بلا استثناء، وهو منهج غريب فهل «نحترم كل الاحترام» من عاصر النبي لأجل الصحبة، والقرآن والعقل لايهتم بعامل الصدفة هذا، ولا نتخذ موقفاً لمن قتل أبناء النبي وانتهك شريعته، والقتل جريمة يندد بها القرآن والعقل والضمير!، وأي نفع في الثقافة إذا كان مثقفنا العربي هنا

---

(١) من وحي عاشوراء: ص٧٦.
(٢) أبناء الرسول في كربلاء: ص٥٤.
(٣) نفس المصدر: ص٧٢ ـ ٧٣.
(٤) نفس المصدر: ص٧٤.

يكبل نفسه بالقيود فلا العقل يفكر ولا الضمير يحتج؟!. وإذا كان معاوية بن يزيد، قد تبرأ من جرائم عائلته وكذلك فعل عمر بن عبدالعزيز، وهما وحدهما البريئان في نظر المؤلف، فكيف يمكن أن ندافع عن ممارسات إجرامية تبرأ منها من هو من صلب العائلة ذاتها؟!. مرةً أخرى نجد أنفسنا بذات الصيغة التي سبق تكلمنا عنها تحت عنوان: تقبيح الحسن وتحسين القبح[1]. وإعادة السؤال: من يصنع خطاب الثقافة؟![2].

عاشوراء منهج علاج وليست استثناء:

لقوة وضوح الحق في ثورة الإمام الحسين، قامت الأقلام الحزبية والثقافة السلطانية، تبني صيغة الهجوم على هذه الثورة، من خلال قلب الحقائق وجعل الجلاد ضحية والضحية جلاد، وهو منطق قديم في الخط الأموي. فسبق أن قال معاوية: إن عمار بن ياسر قتله علي بن أبي طالب لكونه سمح له أن ينضم إلى الجيش المقاتل. فتم استنساخ هذا الكلام بالقول أن الحسين خرج على إمام عصره وبالتالي فهو خارج مرتد. حتى لو كانت وثيقة العهد هي للإمام الحسين وليس ليزيد، وحتى لو كان المقتول طفل رضيع، وأن بيعة الأمير تمت مع جثث القتلى من آل النبي وشيوخ القراء وصحابة الرسول الكريم. وبالطبع فإن الخطاب

---

(١) عاشوراء جرأة الحرية: ص٩.

(٢) عبداللطيف الحرز: «الشيعة، محنة الاختلاف في العقل العربي» ص٧. دار المحجة البيضاء ـ بيروت ٢٠١٠.

الطائفي يكيل بأكثر من مكيال. فهو يسكت عن عبد الله بن الزبير وعبدالله بن عمر، ويقلب المعادلة حينما ننقل الكلام إلى حرب الجمل. ولا يهتم أبداً باستباحة يزيد لمكة والمدينة.

وتارة تقوم هذه الأقلام المأجورة والذهنية المتحيزة إلى تقزيم ثورة عاشوراء أو بابتكار وسائل حجب، كجعل يوم عاشوراء من الأعياد أو من الأيام التي يثاب الصائم فيها، وما إلى ذلك.

ومن هذه الوسائل جعل عاشوراء قضية استثنائية وليست منهج ولا قاعدة. هي محض حادثة اضطرارية نتيجة ظروف تاريخية مؤقتة. وكأن رفع الظلم ليس واجب عقلي وتكليف شرعي؟!.

أو كأن الوحي الرباني يجتمع مع رذائل الأخلاق للأمراء وطبقات السياسة والحكم؟!

لقد حدد الإمام الحسين طبيعة ثورته بكونها «طلب الإصلاح»، وهو طلب متجدد لكون حاجة الإنسانية غير متوقفة عند حاجة، ولكون الإصلاح جزء من طبيعة الإبداع لفطرة المخلوق البشري سواء لدى الفرد أو لدى الأمة. فكان الحسين هو مصدر الوعي الأول ضد تخوفات الشلل المستقبلي لكل أمة تعاني القهر والاستلاب، فعاشوراء طاقة الأمل المستمر في إمكانية إعادة بناء الإنسان وتوجيهه نحو الإبداع وصنع الحرية، لكون الحرية لا تورث ولا تُمنح بل تُصنع وتتكون.

وإذا كانت عاشوراء ثقافة في نقد الواقع، فهي تتعالى في أن

تُحبس بعنوان كونها مناسبة بكائية أو إعادة سيرة رثائية، أو تجميدها في طوطميات تجريدات ذهنية عرفانية أو فلسفية لا صلة لها بواقع الإنسان وتاريخه ومعاناته وطموحاته وبناء الذات الثورية من داخل المعنى المتجدد للتقوى والعدالة القرآنية. فعاشوراء ليست قصة وإنما مفهوم، وعاشوراء ليست ذكرى وإنما راية ولواء. فهي ليست واقعة في تاريخ وإنما نموذجاً أعلى للأجيال.



الفصل الثالث

ثورة الحسين، لدى محمد صادق الصدر
علمية المقاربة وجماهيرية النهضة

توضيحات في المبدء والمنهج:

في كتابه «أضواء على ثورة الإمام الحسين» يعتقد الفقيه الشهيد محمد محمد صادق الصدر، أن الكتابة عن الإمام الحسين ليست تعريفاً علمياً ولا بياناً تاريخياً. فالحسين أعرّف من أي تعريف، وقضية الحسين هي التي صنعت التاريخ وليس التاريخ هو الذي صنعها. وبهذا تكون مقاربة الإمام الحسين قضيةً وتاريخ معتمدة على مدركات العقل وتعاليم القرآن ومدى مطابقة خطباء المنابر والرؤية الشعبية لهذين المرتكزين في فهمهم وعرضهم للإمام الحسين ونهضته. فالكتاب إذن ليس هو تساؤلات المؤلف وإنما تساؤلات الآخرين، وليس في الكتاب العمق المعرفي التام الكاشف عن رؤية المؤلف الخاصة بشكل نهائي، وإنما يقوم المؤلف بطرح مستوى معين من الإجابات بما يتوافق والذوق العام من المعرفة، حيث يشكو المؤلف من ارتباك المشهد الإيماني لدى الجماهير الأمر الذي يعني أن طرح الأجوبة العميقة الحقيقية معناه

تشويش الأذهان بدل إعانتها. خصوصاً وأن بعض الأجوبة مبني على قواعد مذهبية معينة من الممكن أن توسع الشقة بين الفرق الإسلامية والمجتمع الإسلامي في ظرف أحوج ما يحتاجه المسلمون إلى الوحدة والتكاتف:

(إن المثار في هذا الكتاب هو مجموعة من الأسئلة المشهورة في الأذهان وليس جميع ما قد يخطر في الذهن نظرياً عنها من حيث إن إثارتها أو الجواب عليها قد يثير حزازات أو مضاعفات نحن في غنى عنها، بل نحن في ظرف أحوج فيه إلى صقل الإيمان والدعوة إلى وحدة الكلمة بين المسلمين وزرع الحب والألفة بينهم)[1].

وإذا كان الشهيد محمد الصدر قد نجح تقريباً في كتابه «أضواء على الثورة الإمام الحسين» في المحافظة على هذا الشرط، فإنه لم ينجح بذات المستوى في كتابه «شذرات في فلسفة تاريخ الإمام الحسين» حيث خاض في بعض المسائل النخبوية والشديدة الخصوصية كقوله في بيان منزلة الإمام الحسين عند النبي وكون الإمام الحسين والإمام الحسن دون غيرهما ولدا النبي، وكيف أنهما ولدا النبي والإمام علي بنفس المرتبة رغم الاثنينية بين النبي والإمام علي:

(هو أن علي نفس محمد ولكن ليس بالمنازل المتدنية، فهما بالدنيا اثنان، وفي الآخرة كذلك اثنان، وإنما هما نور واحد في

---

(١) محمد الصدر: الأعمال الكاملة ج ٦. «أضواء على ثورة الإمام الحسين» ص٥.

قمة عالية جداً. وظاهر الكتاب والسنة مكرس على الاثنينية تقريباً، فلذا ورد أنه نام على فراش النبي ﷺ مثلاً، أو تزوج بنت النبي ﷺ، وأنه وصي رسول الله ﷺ، ونحو ذلك من الأمور. فكل هذه الأمور تدعم بوضوح وصراحة الاثنينية، وإنما هي اثنينية في عالمها.

إذن، فعلي عليه السلام فيه جهتان: جهة استقلالية وجهة فنائية في رسول الله ﷺ أو قل جهة غيرية وجهة عينية، وقد حاز في كل جهة شيئاً من المميزات. فمثلاً أن قوله ﷺ: (إنك ترى ما أرى، وتسمع ما أسمع)، وقوله ﷺ: (ما عرف الله الا أنا وأنت)، فإنه باعتبار الجهة الفنائية والعينية.

فقد ولد علي عليه السلام الحسنين عليهما السلام من الجانب الفنائي، فأصبحا أولاد رسول الله ﷺ مباشرة. وقد ولد الآخرين بالجانب الاستقلالي، أي بصفته مغايراً له. وبالنتيجة فقد ولد كل أولاده بالجانب الاستقلالي ما عدا الحسنين عليهما السلام)[١].

بل إن كتاب «شذرات في فلسفة تاريخ الإمام الحسين» هو أكثر كتب محمد صادق الصدر ميلاً إلى الفلسفة المدرسية والمطالب العرفانية، على خلاف كتبه الأخرى.

يقدم محمد صادق الصدر اعتذاراً عن عدم الإحاطة التامة بالموضوع، على أساس القواعد الكلامية واللاهوتية القائمة على

---

(١) محمد الصدر: الأعمال الكاملة ـ شذرات في فلسفة تاريخ الإمام الحسين: ص٢٢.

فكرة الحكمة الإلهية. حيث إن العقل البشري بمدركاته العملية والنظرية يبقى محدوداً بالنسبة للعلم الإلٰهي المطلق. هذا بالإضافة إلى أن فاصل العامل الزمني بيننا وبين حادثة مقتل الإمام الحسين، يجعل أحكامنا أحكام الغائب على الشاهد:

(إننا حين نتحدث عن أمر تاريخي كواقعة الحسين عليه السلام، فإننا يمكن أن نتمثل بهذا المثل، وهو قولهم: يرى الحاضر ما لا يرى الغائب. ومن الواضح أنهم كانوا حاضرين ونحن غائبون وهم مشاهدون ونحن غير شاهدين. إذن فليس من حقنا أن نعترض على أية واقعة تاريخية لم نشاهدها ولم نحط بها خبراً. إذ لعل أهلها والقائمين بحوادثها قد علموا ما لم نعلموا من القرائن والحوادث والعلاقات وشخصوا التكليف لهم)[1].

ومن هنا يهتم محمد صادق الصدر بمنهج الاحتمال أو حسب ما يسميه هو «الأطروحات» في معالجة المشكلات والإشكاليات المتعلقة بتاريخ أئمة أهل البيت، خصوصاً وأن لهم عليهم السلام أكثر من غاية وحكمة واحدة في تحركاتهم وأسلوب قيادتهم وتعاليمهم وإرشاداتهم. خصوصاً وأن لكل فعل يتعلق بالحكمة الإلٰهية، حسب نسق الفلسفة الإسلامية والشرقية التقليدية، التي تؤمن بأن لكل وجود غاية يسير إليها، وأن لكل فعل غاية وبالنسبة لفاعله، وبهذا تكون نهضة الإمام الحسين لها بعدان إلهي وبشري[2]. وبهذا تكون أية قراءة دنيوية خالصة لا

(١) محمد الصدر: الأعمال الكاملة ـ أضواء على ثورة الإمام الحسين: ص٧.

(٢) المصدر نفسه: ص٩.

تراعي الأصول اللاهوتية لقضية الإمامة والعصمة، هي قراءة ناقصة وغير صحيحة. فهي لاتستطيع أن تفهم جملة من سلوكيات أئمة أهل البيت وخصوصاً الإمام الحسين، القائمة على التضحية والاستشهاد وليس جمع الأعوان والمصالح والانتصار. وفقدان هذه القاعدة البحثية هي التي جعلت أنطوان بارا يرى، أن الفكر الغربي لايستطيع الخروج بنتائج موضوعية عن الإمام الحسين وأهل البيت، حيث إن إلغاء الجانب الإيماني والإلٰهي معناه تجريد الحوادث التاريخية من أهم عناصرها ومسبباتها(١).

خطأ محمد الصدر التطبيقي:

لكن للانصاف أن السيد محمد الصدر بعض الأحيان يشطح بالعاطفة الدينية فيخرج عن موضوعية الرؤية، كتحليله لمسألة إرضاع النبي الإمام الحسين من إبهامه ونهيه الزهراء عن إرضاعه لكنها تقوم بمخالفة الأمر فكيف تقع مخالفة النبي من هذه السيدة الجليلة؟!، هنا نجد محمد الصدر يجيب بهذه الطريقة المتكلفة:

(فإن قلت: فهل أن الزهراء عليها السلام عصت رسول الله صلى الله عليه وآله وقد قال لها عند ولادة الحسن عليه السلام: لا ترضعيه.

قلنا: إن الجواب على ذلك من عدة وجوه:

الأول: ضعف سند الرواية، فلعلها موضوعة، أو مزيد فيها. ولو لم يكن إلا هذا الجواب لكفى.

---

(١) الإمام الحسين في الفكر المسيحي: ص٢٨.

الثاني: إنما تكون الزهراء عليها السلام مقصرة وحاشاها، فيما إذا كان الأمر إلزامياً، فيحرم عليها الإرضاع. وأما إذا لم يكن الأمر إلزامياً فلا إشكال، ولعلهم متفقون ما بينهم أن هذه الأوامر لا تكون إلزامية، وإنما هي اقتراحات، أو ترجيحات، أو نحو ذلك.

الثالث: إنه ما من شيء حرمه الله إلا وأحله في وقت الضرورة، وهذا حكم شرعي نافذ على المعصومين وغيرهم. ومن الممكن القول ببساطة، ووضوح: إن الزهراء عليها السلام شعرت بالضرورة والعسر والحرج. فالضرورة أسقطت الأمر بوجوب تأجيل الارضاع.

الرابع: إنها تلقت من الله تعالى أمراً عن طريق الإلهام، بأن ترضعه، لأن ذلك استحقاقه، والإلهام مقيد لأمر النبي صلى الله عليه وآله، ويكفي لنا أن نحتمل ذلك، في أن نحملها على الصحة)[1].

فمثل هذه الطريقة في الإجابة تؤدي إلى نتائج خطرة: ما معنى أن تكون أوامر النبي مجرد اقتراحات، وكيف يمكن أن يأمر النبي بما فيه أمر حرجي وضرر لابنته الزهراء؟!. وكيف نحل المسألة باحتمال إلهام ينزل على الزهراء يقيد مقام النبوة وأوامر لم يمضي عليها سوى دقائق؟!

واضح أن ثمة حس بأهمية تبرير الرؤية المشاعة للشخصيات الدينية وتاريخهم قبل الخوض في البحث، الأمر الذي يؤدي إلى

(١) محمد الصدر: الأعمال الكاملة ـ شذرات في فلسفة تاريخ الإمام الحسين: ص٢٤.

فتح كمية من الاحتمال غير متناهية، وهي أن أسقطت الإشكال عن أن يكون يقيناً فإنه في الواقع يسقط جميع الأجوبة أن تكون صحيحة بنفس المقدار، وهذا عيب ينفذ إلى قلب منهج «الأطروحات» للسيد الشهيد محمد محمد صادق الصدر ويصيبه بالصميم. ومن هنا نجد محمد الصدر في هذا النموذج يقول من جهة بضعف سند الرواية من ناحية رد الإشكال، لكنه يعتمد ذات الرواية للدلالة على تميز مكانة الإمام الحسين، وكم لهذا من مثيل في كتابات محمد الصدر والجمع الغفير من الكتابات الدينية.

في نموذج ثاني يخص مناقشة كذبة كون السيدة سكينة بنت الإمام الحسين كانت تبرز للرجال في مناقشات أدبية وشعرية، وهي من حيل الخطاب الطائفي والثقافة السلطانية، التي تجعل مرة للإمام علي بنات زوجهن للخليفة الثاني ومرة بنت للحسين تجتمع مع الرجال سافرة، من أجل ضرب مفهوم أهل البيت من الداخل. فيعرض محمد الصدر جملة من الأدلة المختلفة في رد هذه الاشاعة اللاأخلاقية وهي في أغلبها أدلة دامغة، لكنا مع ذلك نجد أن محمد الصدر يستدل بهذا الدليل أيضاً:

(فقد ورد في الزيارة الجامعة: السلام عليكم يا أهل بيت النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة ومهبط الوحي (...) ومن يكونون هكذا، لا يحتمل فيهم أن تكون بعض نسائهم هكذا)[١].

---

(١) المصدر السابق: ص٨٦.

مع أن القرآن الكريم يخبرنا أن امرأتي نوح ولوط كانتا غير صالحتين، فإذن علو مقام بعض الأسر وكبارها لا يعني أن جميع الأفراد صالحين أو بذات المستوى الروحي. وبالتالي فهذه الطريقة في حل الإشكال ليست بذات قيمة نقدية.

ونموذج توضيحي آخر، هو تفسير محمد الصدر للآية ٧٣ من سورة هود التي يجعلها محمد الصدر تعني أهل بيت نبي الإسلام وليس آل إبراهيم، وهنا يأتي إشكال أن السياق يتحدث عن إبراهيم وزوجته فكيف يكون المعنى منصرف إلى أهل بيت نبي الإسلام؟! فيجيب محمد الصدر بهذه الطريقة من الإجابة:

(أن نقول ولو احتمالاً، أن عملاً تخريبياً قد أنجز خلال التاريخ، وهو وضع الآيات الخاصة بأهل الحق بين قرائن مغلوطة، لكي تنسب إلى غير أهلها، كما نسبوا هذه الآية إلى أهل إبراهيم، ونسبوا تلك الآية إلى نساء النبي ﷺ. وهذا ليس قولاً بالتحريف الذي هو معنى النقيصة، وإنما هو قول بتغيير محل بعض الآيات.

فمن المحتمل أن هذه القرينة المتصلة ليست بقرينة أصلاً، ولم تنزل وحياً هكذا. فتتوقف دعواهم على يقينية القرينة. فلا يمكن القول بذلك، لاحتمال الفصل بالوحي بين الآيتين. والاحتمال مبطل للاستدلال)[١].

فالعاطفة الدينية هي التي تجعل محمد الصدر يخرج عن

---

(١) المصدر السابق: ص٣٣.

الدلالة السياقية ويهمل التدقيق الموضوعي، ويجعله يسقط في القول بتحريف القرآن ولو على مستوى ترتيب الآيات، الأمر الذي يُفقد القرآن أية قيمة دلالية على مستوى السياق وعلى مستوى بنية الخطاب. وهذا يكشف عن الطبيعة الانتقائية للفكر الديني.

قوة العزم ومبدء الإصلاح التكاملي:

يوضح السيد محمد الصدر إن تضحية الإمام الحسين هي تجسيد لقوة الهمة في الدفاع عن العقيدة والمبدء الصالح. فالإخلاص يعني تصعيد مستوى الهمة، ومواصلة الهمة يعني تحقيق منزلة العصمة التي هي أعلى مستويات الوفاء للمبدء الصالح[1].

وترتبط ثورة الإمام الحسين وممارسته لدور الاصلاح، جزء من فلسفة التاريخ وتطور التكاملية الحضارية. وبهذا تكون لثورة الإمام الحسين بعد مستقبلي وليس تقهقهر تاريخي صوب الارتكاس بالماضي:

(يميل البعض من المفكرين ممن يريد إثبات وعيه، وإخلاصه في كتابته للتاريخ أو فلسفة التاريخ، إلى القول بترابط حلقات التاريخ عموماً، أو تاريخ المعصومين عليهم السلام خصوصاً).

فإن التاريخ ليس مجموعة عشوائية من الحوادث، وإنما هو عبارة عن حوادث مترابطة، أي أن فيه اتصالاً، وعلية ومعلولية.

---

(١) المصدر السابق: ص٤٢.

بل بالإمكان القول أن هناك نحو من التخطيط والحكمة من أول التاريخ إلى آخره، سواء كان التاريخ عموماً، أو تاريخ معصومي ما بعد الإسلام، ابتداءً من النبي ﷺ وانتهاءً بالإمام المهدي عليه السلام خصوصاً. فالأئمة عليهم السلام نفذوا مخططاً واحداً مشتركاً ومدروساً ومتفقاً عليه بينهم، ولو كان أي منهم في محل الآخر لفعل نفس فعل الآخر. فلو كان الإمام الهادي عليه السلام مثلاً بدلاً من الإمام الصادق عليه السلام لفعل نفس فعله، وكذلك العكس، فإن المصلحة في زمن الإمام الصادق عليه السلام تقتضي الفعل الذي فعله الإمام عليه السلام، فأي شخص من الأئمة لو كان في ذلك الزمن لكان عليه أن يفعل ذلك الفعل، لأن المصلحة الواقعية واحدة لم تتغير.

ثم إنهم يذكرون لذلك المخطط وجوهاً وأطروحات مستندة إلى ما استطاعوا فهمه من مجموعة الأقوال والأفعال الصادرة من المعصومين عليهم السلام وغيرهم.

ولا تنافي قطعاً بين كون التاريخ عموماً مخططاً عن حكمة ودراية وبين تاريخ المعصومين عليهم السلام وكونه مخططاً كذلك. وبتعبير آخر إن تاريخ المعصومين عليهم السلام هو حصة، أو مصداق من التخطيط التاريخي العام. ولكنهم عادة يبرزون فرقاً بينهما. وحاصله:

إن التخطيط العام للتاريخ تكويني، والتخطيط في التاريخ الإسلامي تشريعي، أو قل: إن ذلك تلقائي، وهذا عمدي. نعم، كلاهما عمدي بالنسبة إلى الله تعالى، ولكننا نتحدث بالنسبة إلى الأفراد، فإنه لم يدل الدليل على أن الأفراد قبل الإسلام كانوا يعلمون الحكمة الإلٰهية، وأنهم ملتفتون إلى التخطيط الإلٰهي بما

فيهم الأنبياء عليهم السلام فضلاً عن عامة الناس. ولكن الدليل دل على أن المعصومين بعد الإسلام كانوا ملتفتين إلى ذلك التخطيط، وإلى الحكمة الإلٰهية (..) وإلى حدٍّ ما نستطيع أن نقول: إن هذه القاعدة ثابتة ومبرهن عليها في علم الكلام من ناحية، وفي الفلسفة من ناحية أخرى، فإننا حينما نؤمن بوجود الله تعالى، ونؤمن بعدله، وحكمته اللامتناهية، بتسبيب الأسباب والمسببات، إذن، فكل شيء مهما كان صغيراً فهو مطابق للحكمة الإلٰهية التي نؤمن بها، ويحتاجه التسبيب الكوني، سواء أكان على وجه الكرة الأرضية أم خارجها.

هذا من ناحية علم الكلام. وأما من الناحية الفلسفية، فإن الأمور تفلسف بدقة أكثر، بحيث يجعلون الكون على شكل هرمي في المسؤولية الإلٰهية، ابتداءً من الصادر الأول، وانتهاءً بأدنى شيء. إضافة إلى فكرة أخرى، وهي أن العلل العليا ليس لها ماضٍ وحاضر ومستقبل، فإن هذه الحدود تخنقنا لأننا فيها، وأما من ينظر إليها من فوقها، فهو في غنى عنها، ولا يحتاج إليها، فليس لها ماضٍ وحاضر ومستقبل، بل إن كل ذلك هو تحت سيطرة العلل العليا (..) إن من جملة فقرات هذا التخطيط هو اختيارية كل المخلوقات، لأن الفلاسفة المتعمقين يقولون: إن كل الخلق له نحو من العقل والعلم والإرادة، كل حسب مرتبته، لأن هذه الأوصاف ملازمة للوجود، فما دام الشيء موجوداً فإن له نحو من هذه الأوصاف مهما قل، فمن هذه الناحية يكون الاختيار مع الإرادة موجوداً (..) فالأئمة عليهم السلام يعلمون بالواقعيات حسب

تعليم الله لهم. إذن فهم كانوا يسيرون ويتصرفون حسب المخطط المدروس الذي يبدأ ببيعة النبي ﷺ وينتهي (أو لا ينتهي) بظهور الإمام المهدي عليه السلام والذي يستهدف نصرة الحق باستمرار بالمعنى الذي هم يفهمونه من النصرة.

إذن، فهذا العلم ليس مختصاً بالله سبحانه، بل هو مبلغ إلى المعصومين عليهم السلام بالإلهام. وأما نفيه بالمرة أو الاستدلال على عدمه، فهو غير ممكن للجزم بوجود قوانين عامة إلٰهية تحكم التاريخ من ناحية، ووجود مصالح عامة وخاصة بشرية تحكم المجتمع من ناحية أخرى. مع العلم أن المصالح تتحدد بما قبلها وبما بعدها من الأمور والحوادث، مما يعلمه الله سبحانه. فلولا وجود خريطة معلومة لله سبحانه من المصالح، لكان العمل لغواً وعشوائياً، وهو محال على الله سبحانه وعلى المعصومين عليهم السلام. (. .) وإذا كان هذا المخطط التاريخي العام موجوداً في علم الله سبحانه، وفي علم المعصومين عليهم السلام، كان في إمكان غيرهم التعرف عليه، أو على أهم خصائصه، أو جوانبه، أو على بعضها أياً كان على أقل تقدير.

نعم، يبقى هذا منوطاً بأمرين:

أحدهما: مقدار استفادته من الكتاب والسنة، فإن السنة هي قول المعصوم أو فعله أو تقريره، فهي داخلة تكويناً في هذا المخطط. إلاّ أن ما يمكن استفادته بنحو واضح ومطابق منها قليل جداً. وذلك بسبب نقص المصادر أساساً، فإن كثيراً من الكتب قد تلفت خلال التاريخ، إما عن علم وعمد، وإما بالصدفة، وكثير

منها قد تلفت بسبب العوامل الخارجية من دون تعويض. فإن عشرات الآلاف من الكتب قد تلفت، يكفي أننا نعلم بحسب النقل، أن السيد المرتضى علم الهدى (قده) كانت تحتوي مكتبته ثمانين ألف كتاب مخطوط، فأين هي؟. وكل علمائنا السابقون، كانوا يمتلكون عدداً كبيراً من الكتب لم يصل منها إلينا إلا النادر. فنقصان الكتب له دخل كبير في إلقاء الضباب والغبار على هذا الشيء الذي نتكلم عنه.

الثاني: مستوى الفرد المفكر الذي يحاول الفهم والاستفادة، لوضوح أن الناس يختلفون بكل خصائصهم عقلياً ونفسياً وروحياً وثقافياً واجتماعياً مما تجعل النتائج عندهم مختلفة لا محالة.

وعلى هذا اختلفت الأطروحات والنتائج التي توصل إليها المفكرون، والمحاولات ليست كثيرة العدد إلا أنها كثيرة الاختلاف. فمثلاً: إن بعضهم يميل إلى فهم تاريخ المعصومين كقطعة واحدة، وبعضهم يميل إلى تقسيمه إلى ثلاثة أقسام، وبعضهم يميل إلى تقسيم كل حياة إلى عدة أقسام، فيكون المجموع عشرات الأقسام وهكذا.

مضافاً إلى اختلافهم في فلسفة وأسباب التاريخ والأقوال والأعمال التي قام بها المعصومون عليهم السلام وأعداء المعصومين عليهم السلام وغيرهم، مضافاً إلى مستوى النظر إلى المعصومين أنفسهم كقادة دنيويين أو دينيين أو معصومين، أو خير الخلق ونحو ذلك. مضافاً إلى اختلاف مذهب المؤرخ أو الفيلسوف.

ونحن الآن لا حاجة لنا إلى إعطاء قانون عام أو فلسفة موحدة لأعمالهم أو للتاريخ، وقد فرغت ذمتي من ذلك بعد أن أعطيت صورة واضحة منه في (اليوم الموعود). وإنما يكفينا هنا مجرد إدراك ترابط العلل والمعلولات في علم الله تعالى، وعلم المعصومين عليهم السلام قطعاً. فقد قال شخص في يوم من الأيام: إن العشر سنين السابقة على الظهور فيها إعداد للظهور، فقلت: نعم، إلاّ أن هذا الإعداد يحتاج إلى سبب وهو العشر سنين السابقة عليه وهكذا، إلى أن يصل إلى صدر الإسلام بل إلى آدم عليه السلام)[1].

وكأن الصدر الثاني يقدم تعليقاً نقدياً على كتاب محمد باقر الصدر «أهل البيت تعدد أدوار ووحدة هدف». ولايقبل بكون لكل إمام مهمة مختلفة. بحسب ضغوطات الظرف الخارجي، فهذه الصيغة التي ثبّتها محمد باقر الصدر مجرد صيغة احتمالية يقابلها احتمالية أخرى حيث يمكن أن نتصور أن كل ذات إمام ما لها طبيعة ومنزلة روحية وعلمية مختلفة على وفقها تكون طبيعة نشره للرسالة المحمدية، لها صبغة وسلوكية مختلفة. ولعل هذه الفكرة قريبة من بعض النظريات العرفانية، وإن كان الصدر الثاني يستفيد منها بطريقة خاصة.

ومن هذه الزاوية يتطرق المؤلف إلى مشاكل عقائدية عديدة مثل علم الإمام بالغيب، حل مشكلات الروايات المتعارضة، وما إلى ذلك من قضايا لآهوتية. لكن المحور الأساسي يبقى كون

---

(١) المصدر نفسه: ص١٤ ـ ١٧.

اجتماعية الفكر الديني، وكون تاريخ الأئمة مسؤولية معاصرة لكل جيل. وهذه فكرة ثابتة في نسق الصدر الثاني. حيث إن قاعدة (من رضي بفعل قومٍ كان منهم) تعني أن القاتل ليس واحداً، وأن مسؤولية حمل راية الإصلاح هي مسؤولية الإنسانية جيلاً بعد جيل[1]. خصوصاً وأن الحسين قدم النموذج الأعلى للتضحية من أجل المبدأ العقيدي والأخلاقي. فكان الحسين صمود كامل وصبر شامل. كان الحسين هو التضحية الحقيقة الكاملة التي لا يمكن أن نقارنها بأي شهادة أخرى، لكون الحسين أقدم على المعركة وهو يعلم أنه لا مفر من الموت فيها، وهو عنصر نفتقده حتى في معركة بدر في الماضي ومعارك الإمام المهدي في المستقبل[2]. فالحسين هو من جسد كون الإسلام عبارة عن أطروحة كاملة ورؤية منهجية راسخة، ليس كعقيدة أسلاف وإنما ككفاح القادم من الأجيال[3]. فكما حصل خط الانحراف على مكاسب طويلة لا زالت مستمرة، جراء جريمة قتل الإمام الحسين، كذلك حصل واجب ومسؤولية مستمرة في كل عصر لمن ينتمون لخط الإصلاح والعدل[4]. ومن هنا كان الحسين المنبع الجاري الذي لا حدّ له، والمخزون الفكري الذي لا يبلغ قعره، فنحن نفهم من الحسين بقدر فهمنا وليس بما للحقيقة الحسينية من مدى وآفاق[5].

---

(١) محمد الصدر: الأعمال الكاملة ـ منبر الصدر: ص٢٥.

(٢) نفس المصدر: ص٣٠.

(٣) نفس المصدر: ص٤٩.

(٤) نفس المصدر: ص٥٣.

(٥) نفس المصدر: ص٣٤٣.

الخطر والتضحية والكفاح:

التربية القيادية للأمة، من خلال الصبر والتضحية والتعليم والآلام، أنتجت جملة من الشخصيات الإسلامية ذات الكفاءة المميزة بحيث كانت جميع ممارساتهم خالصة في تقيدها بقواعد القيادة وإرشاداتها[1].

وهذا جزء أساسي من فكرة «المجتمع المعصوم» لدى الصدر الثاني، حيث إن صفة الراسخون في العلم غير مقتصرة على ثلة تاريخية معينة كالأنبياء والأئمة، وإنما هي صفة حركية مستقبلية أيضاً، إذ يبقى باب التكامل النفسي والروحي مفتوحاً[2]، وهنا نلمس بعض الاقتراب من التأثيرات العرفانية في هذا المجال[3]:

(إن الباب بالرحمة الإلهية مفتوح لكل أحد في أن يصبح من أصحاب اليمين أو المقربين، بمقدار ما أدى من عمل وبمقدار ما يطيق من قواه العقلية والنفسية والروحية ونحو ذلك من الأمور)[4].

وعلى أساس هذا المنهج كانت فكرة الغاية مرتبطة بقيادية الأئمة في البداية وبهداية المجتمع وتكامله في النهاية:

---

(١) الأعمال الكاملة: أضواء على ثورة الإمام الحسين: ص١٨.

(٢) المصدر نفسه: ص١٨.

(٣) عبداللطيف الحرز: «من العرفان إلى الدولة»، فصل بعنوان: التصوف ومكابدات الهم الجماهيري، من عبد الله شبر وهاشم الحداد إلى محمد الصدر.

(٤) أضواء على ثورة الإمام الحسين: ص٩.

(إن التصرفات المهمة التي ترتبط بالمصالح العامة وبالحكمة الإلهية في تدبير المجتمع وتسبيب أسبابه، هي دائماً محل عناية الله سبحانه وتدبيره، وكل شيء يتوقف على ذلك فهو حاصل لا محالة بقدرة الله سبحانه، وكل مانع يمنع عنه فهو منتفٍ بقدرته أيضاً. لكن مع حفظ ظاهر الأسباب والمسببات المعهودة بطبيعة الحال (. .) فإذا تم لنا ذلك: أمكننا القول بأن تصرفات الأئمة سلام الله عليهم وأصحابهم لا شك مندرجة في هذا النظام الإلهي العام)[1].

وعلى أساس هذه القاعدة تكون نهضة الحسين هي بدورها سبباً من الأسباب التي تقع في تكوين ثورة الإمام المهدي ودولة العدل المستقبلية:

(وقد يخطر في الذهن: أنه يكفي الإعداد للظهور في العشر السنوات الأخيرة السابقة عليه في علم الله سبحانه. قلنا: كلا، فإن الحال في هذه العشر سنوات أيضاً تحتاج إلى سبب وسببه يحصل في العشر السنوات التي قبلها. وهكذا إلى أن يصل إلى عصر صدر الإسلام، ويتصل بالأئمة المعصومين عليهم السلام وأصحابهم. بل يتصل بما قبل الإسلام منذ نزول آدم عليه السلام فما بعده، لأن ذلك كله نظام واحد متصل ومتسلسل يتبع بعضه بعضاً في الحكمة الإلهية كنظام الخرز)[2].

---

(١) المصدر نفسه: ص١٩ ـ ٢٠.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٠.

ويسهب محمد صادق الصدر في دفع الشبهة التي حاكها الإعلام الأموي بكون الإمام الحسين قذف بنفسه في التهلكة، والمروق على الجماعة، رغم أن الإمام الحسين وقف بوجه الباطل بثلة بسيطة من أهل بيته وأصحابه، بينما وقف معاوية وعائشة ويزيد ضد إمام العصر بجيوش جرارة، مع ذلك عد القوم أن ذلك مجرد خطأ في الاجتهاد!!.

ويناقش محمد صادق الصدر مفهوم التهلكة في القرآن والعرف والفقه، فيرى الشبهة مجرد تغطية على عقيدة الثورة التي لا يمكن أن تتم بدون مواجهة الموت والخطر والتضحية والكفاح:

(ونحن نرى الناس كلهم، تقريباً بل تحديداً، يضحّون بمختلف التضحيات في سبيل نتائج أفضل، سواء من ناحية الأرباح الاقتصادية أو المصالح الاجتماعية أو النتائج السياسية أو الثمرات العلمية أو أي حقل من حقول هذه الدنيا الوسيعة. فإنه يحتاج إلى تضحية قبل الوصول إلى نتائج. ومن الواضح أن هذه النتائج ما دامت مستهدفة لم يعتبرها الناس تهلكة أو خسارة، بل يعتبرونها ربحاً وفيراً، ورزقاً كثيراً، لأنها مقدمات لها، على أي حال. فإذا طبقنا ذلك على حركة الحسين عليه السلام، أمكننا ملاحظتها مع نتائجها بكل تأكيد، سواء النتائج المطلوب تحققها منها في الدنيا أو المطلوب تحققها في الآخرة. فإنها نتائج كبيرة ومهمة جدّاً)[1].

---

(١) المصدر نفسه: ص٢٢.

ثورية التربية الصالحة:

فقضية الإمام الحسين هي شريعة الثورة المدروسة، حيث الإيمان بنظام العلل والأسباب المنطقية والطبيعية، وحيث تكون المقاومة هي الأساس وليس الانصياع للظالمين طلباً للسلامة. فليست التقية هي الخنوع والطاعة للسلاطين، كما أن الثورة ليست عملاً عشوائياً عاطفياً غير مقيد بدراسة موازنات القوى وثمرة المصالح[1]. وهذا هو الدرس العميق لنهضة الإمام الحسين وواقعة كربلاء. وبدراسة النص القرآني ونصوص الروايات وجملة حوادث التاريخ، ينتهي الشهيد الصدر الثاني إلى تبني نتيجة مخالفة للنظرية الشائعة، وبالقول بأن مبدأ التقية هو مبدأ تخييري وليس إلزامي[2]، ما عدى تلك الحالات الإلزامية لحفظ المجتمع، أما القاعدة فهي التضحية والمواجهة اللذان عليهما ابتنى الإسلام وقام[3].

وإن كان محمد صادق الصدر يرى أن التقية بالنسبة لمهمة التضحية والمواجهة العلنية الكاملة غير متوفرة العناصر في الوقت الراهن لذا تبقى بعض مراتب التقية هي اللازمة[4] وعلى أساس هذه القاعدة قدم الإمام الحسين تضحيته الكبيرة لمواصلة ذات المسيرة. فالثورية لاتعني الوقوع في كارزمية عصابية، وإنما الثورية لابد أن تكون نهضة من أجل بناء القانون والعدل في بنية المجتمع

---

(١) عبداللطيف الحرز: «محمد الصدر كفاح الجماهير» ص٢٨٣.
(٢) أضواء على ثورة الإمام الحسين: ص٣٠.
(٣) المصدر نفسه: ص٣١.
(٤) المصدر نفسه: ص٤٨.

وفي مؤسسة الحكم[1]، خصوصاً وأن استنتاجاتنا وتأملاتنا بنهضة الإمام الحسين، هي استنتاجات بشرية وتأملات إنسانية قائمة على الاحتمال، فلكل طرف تجربته الخاصة ورؤيته المحددة في استلهام الدروس والعبر[2]. للنهضة إرادة ونوعاً آخر من النصر، نصر غير مؤقت يمزق أردية التاريخ المستعار المُحاك بإعلام السلطة، وينتج تاريخه الخاص به، فهي نهضة متجددة النصر رغم أنها لم تحرز نجاحاً عسكرياً أو سلطوياً في زمانها وتاريخها[3].

خط الحسين هو ذاته خط الأنبياء كموسى وإبراهيم وعيسى ويحيى، اللذين لم يكونوا يملكون القوة والمعدات والعدد الكافي للأنصار، ومع ذلك ثاروا وانتفضوا ضد الظالمين، فالحسين ليس استثناء كي نتساءل لماذا قذف الحسين نفسه بوجه الموت مع قلة الناصر؟!

فالثورة الحسينية ثورة التربية للأمة الصالحة، حيث إنه عليه السلام أمة الإسلام. خصوصاً وأن تطور المجتمع وتقدم التاريخ، هو العنصر المهم في استيعاب حركة القيادات العليا والثورات الكبرى، وهذا يعني أن الحقيقة الدينية ذات غايات إنسانية في التكامل، وهذه الغايات لايمكن قصر فهمها على حدود ما استوعبه المجتمع الشاهد آنذاك، فالاستيعاب يحتاج إلى تربية والتربية تتحقق في الإنسانية من خلال تجارب التاريخ:

---

(١) المصدر نفسه: ص٣٣.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٤.

(٣) المصدر نفسه: ص٣٥.

(لدينا قانوناً عرفياً وشرعياً، متبعاً في التفاهم بين جميع الناس، وإن لم يكن يلتفت إليه الكثيرون بصراحة. وهو قانون: (كلّم الناس على قدر عقولهم) والحسين عليه السلام لا شك أن المجتمع في ذلك الحين لم يكن يطيق فهم واستيعاب أهدافه الحقيقية من حركته، لأنه كان حديث عهد بالدين وبشريعة سيد المرسلين، ولم يكن المجتمع يومئذ تربى بالمقدار المطلوب، وإنما كان فهمه للدين بسيطاً وتطبيقه للتعاليم قليلاً، ما عدا نفر يسير من الناس. وبالتالي لم تكن هذه الألف وحوالي النصف من السنين قد مرت وأثرت في تربية المجتمع وتكامل فهمه العقلي والنفسي تكاملاً معتداً به. وكلما مرت السنين أكثر كان هذا التكامل أكثر لا محالة)[1].

فحركة الإمام الحسين هي حركة غايتها الثورة منذ البداية، لم يقم الإمام الحسين بالثورة نتيجة ضغوطات خارج المفهوم الإسلامي للواجب، فهي ثورة وعي مدروس ومُتمعن فيه بدقة وبتعبير الشهيد مرتضى مطهري في كتابه الملحمة الحسينية (ص٦):

«إن الإسلام اختلف عن بعض النهضات التي جاء نتيجة انفجارات خاصة، فالفكر الدياليكتيكي يوصي بتصعيد التناقضات وإثارة الاستياء وتعميق الخلافات أكثر فأكثر وإبداء المعارضة للإصلاحات الواقعية لدفع المجتمع إلى الثورة بمعناها الانفجاري لا الثورة الواعية.

---

(١) المصدر نفسه: ص٣٥.

إن الإسلام لا يؤمن مطلقاً بمثل هذه الثورة، وقد كانت الثورات أو النهضات الإسلامية كلها وليدة وعي وإدراك كاملين للواقع الذي جاءت لتغييره، وإن ثورة الحسين عليه السلام لم تكن وليدة الانفجار ولم تكن عملاً بعيداً عن الوعي ولم تنشأ نتيجة نفاذ صبر الحسين عليه السلام بسبب الضغوط الكثيرة التي كانت تمارس من قبل الأمويين وعمالهم أيام معاوية وابنه يزيد بحيث تؤدي به إلى أن يثور ويقول: فليكن ما يكن! كلا لم تكن نهضة الحسين عليه السلام بمثل ذلك، ويدل على هذا الرسائل المتبادلة بينه وبين معاوية وابنه يزيد من بعده. بالإضافة إلى الخطب التي أوردها في مجالات مختلفة خاصة تلك التي خاطب بها صحابة الرسول صلى الله عليه وآله وهم مجتمعون في منى. وقد نقل حديث هذه الخطبة بصورة مفصلة في كتاب تحف العقول، إن الأدلة المشار إليها كلها تبين أن الإمام الحسين عليه السلام ثار وهو مدرك كاملاً سبب قيامه ولم تتدخل في نهضته عوامل الانفجار النفسي مطلقاً، بل كانت ثورة إسلامية محضة».

وبهذا لا يكون فهم ثورة الإمام الحسين، قائمة المصدر على تركة النصوص وكتب التاريخ، وإنما على تجربة الإنسانية في عمرها الحضاري الطويل.

علل الخيار النهضوي:

لقد كان من الحتمي أن يتخذ الإمام الحسين سبيل الثورة والمواجهة لكونه القدوة والمثل الأعلى في المجتمع الإسلامي،

خصوصاً وأن الدولة الأموية قد شوهّت المجتمع وحصرت الإمام الحسين بين خياري التبعية المُذلة والموت الاستشهادي، فكان لازماً أن يبين الإمام الحسين منهج المواجهة ومقاومة الديكتاتورية[١]. ولايمكن للإمام الحسين في ذلك الظرف الزماني والمكاني، أن يتخذ سبيل الهرب أو الهدنة، فقد كان المجتمع بحاجة إلى قدوة للصمود والموقف الصريح والواضح من نظام الطاغية، ولو أن الإمام الحسين اتخذ مثل هذه السبيل لكان ذلك ذريعة لتشتت الخط الإيماني وخط التضحية الذي كان يعاني جملة من أساليب الحصار والمحاربة[٢].

وسبيل الاستشهاد هو الذي جعل الإمام الحسين يحقق أهداف شخصية تتمثل بنيله درجات رفيعة في العشق الإلٰهي والتضحية في سبيل الله، وأهداف عامة تتمثل بوضع قواعد تكشف الإسلام المحمدي بعيداً عن تلبيسات الإسلام الرسمي المزوّر[٣].

فبأخذ الإمام الحسين لعائلته نساءاً وأطفالاً، كشف عن منطق الديكتاتورية وفضح مدرسة الخلافة، وكيف أن منطق السلطة هو منطق القوة المناقض للانسانية، وأن هذه الدولة لا يمكن أن تنتمي إلى الإسلام من ناحية الأحكام الشرعية، ولا إلى الإنسانية من ناحية الاحتكام إلى الضمير والوجدان، وعلى هذا الاساس تكون معركة كربلاء ليست معركة زمنية وقعت بين أشخاص، بين

---

(١) المصدر نفسه: ص٣٩.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٩.

(٣) المصدر نفسه: ص٤٠.

الحسين ويزيد، وإنما بين خطين دائمين هما خط الإنسانية وخط التوحش، خط الكفاح وخط التبعية، خط الإصلاح وخط الإفساد[1].

وبتعبير أنطوان بارا:

(إذن فالثورة بماهيتها هذه ذات استمرارية خالدة، فكل مكان يقف عليه ثائر هنا وهناك هو كربلاء، وكل طعنة سيف في عاشوراء هي طعنة لمفاسد الحكم في أي وقت، وكل نقطة دم أريقت فداء الحق، استمرت تعلن فداءها في رغبة الإنسان العامرة في الاستشهاد في سبيله. هي ثورة بدأت ساخنة واستمرت محافظة على سخونتها طالما ثمة ظلمٌ فوق هذا الكوكب، ولطالما ثمة فساد في الحكم وعبثٌ في العقائد، وهي ثورة لن تبرد أبداً، بل هي في غليان دائب، لاسيما في هذا العصر، عصر الضنك والظلم والاضطهاد والترويع لشعوب كثيرة، حيث انتهكت الحريات وبان جلياً العبث في العقائد والأديان، بل واستغلال هذه الأديان في تثبيت المفاسد والانتهاكات البشرية. فالحسن عليه السلام ثار من أجل الحق، والحق لكل الشعوب. والحسن عليه السلام ثار من أجل مرضاة الله، وما دام الله خالق الجميع فإن ثورة الحسن لا تختص بأحد معين، بل هي لكل خلق الله (. .) المظلومون والمضطهدون والمقهورون والمرّعون من كل العقائد والبقاع يتجهون في كل رغباتهم إلى جوهر ثورة الحسن عليه السلام ففي اتجاههم

(١) المصدر نفسه: ص٤٢ ـ ٤٣.

الفطري ورود إلى منبع الكرامة والإنصاف والعدل والأمان)[1].

خصوصاً وأن هدف ثورة الإمام الحسين أبعد من أن يرتبط بإطاحة حكومة زمنية كحكومة يزيد أو السلطة الأموية، وإنما هي مرتبطة بالإطاحة بكل ظلم مهما كان نوعه وفي كل العصور:

«خرج لطلب الإصلاح في أمة محمد ولإحقاق الحق في المجتمع الإسلامي، ولرفع الظلم والضنك عن كاهل الفرد المسلم، ولإحلال مناقبية أخلاقية جديدة تحل محل تلك المدجنة التي ربضت في النفوس، ولذبّ أذى المنتهكين عن العقيدة الوليدة. كان هذا هدفه، وكان ضمير الأمة مرمى كرته. لم يكن عرض يزيد إذن كهدف بحدٍّ ذاته سعى الحسين بثورته إليه، بل كان هدفاً مكملاً لهدف أسمى لا دخل له بالعروش الزمنية بقدر ما كان دخله بأنماط الحكم في كل زمان ومكان، وبأنماط الشخصية الإسلامية وبأساليب أخذها للسنة والعمل بها، كما لم تكن وقعة كربلاء معركة عسكرية انتهت في العاشر من محرم بانتصار وانكسار، بل كانت رمزاً لموقف أسمى لا دخل له بالصراع بين القوة والضعف، بين العضلات والرماح، بقدر ما كانت ذات صلة بالصراع الحقيقي بين القوة وضعف النفوس، بين الشك والإيمان، بين المسلم وعوامل إبعاده عن عقيدته»[2].

وايضاً يمثل الإمام الحسين خط الحب وترابط المحبة بين

---

(١) الحسين في الفكر المسيحي: ص٨٠ ـ ٨١.

(٢) الحسين في الفكر المسيحي: ص١٧١.

الأجيال ضد خط الكراهية، حيث تكون الموافقة لقرار الإمام الحسين رابطة عاطفية متصلة الزمن بين الشعوب على مر التاريخ، حيث إن هنالك جملة من مصاديق الموافقة مثل الجسدية والمالية، وهي محدودة بزمن وتاريخ. وهناك الموافقة العاطفية التي هي موافقة مستمرة ومتجددة:

(المستوى الثالث: الموافقة مع الحسين عليه السلام نفسياً وقلبياً وعاطفياً، وبالتالي الموافقة الحقيقية على عمل الحسين عليه السلام وتضحيته وعلى هدف الحسين عليه السلام ورسالته. حتى أن الفرد المحب له يحس كأنه أعطى قطعة من قلبه أو كبده وأنها قتلت فعلاً بمقتل الحسين عليه السلام.

وأنه (أعني المحب) وإن كان حياً يرزق في هذه الدنيا وفي كل جيل، إلاّ أن التضحية تضحيته والعمل عمله. يكفينا من ذلك ما ورد: «أن الأعمال بالنيات». «وأن نية المؤمن خير من عمله» وما ورد: «أن الراضي بفعل قوم كفاعله». وما ورد: «أن الفرد يحشر مع من يحب» إلى غير ذلك من المضامين التي تجعل التضحية التي قام بها الحسين عليه السلام، منتشرة فعلاً لدى كل محبيه والمتعاطفين معه على مدى الأجيال. وأن كل واحد منهم يستطيع أن يقول: اللهم تقبل منا هذا القربان. وليس العقيلة زينب فقط)[1].

فالحسين طريق الحب الإلٰهي وتعليم الإنسان الانتماء إلى

---

(١) أضواء على ثورة الإمام الحسين: ص٤٧.

الحق بكل طاقته وإمكانياته الجسدية والمالية والنفسية والثقافية. حيث تبقى جميع صور التضحيات التي قدمها أبطال المبادئ والعقائد السامية صغيرة بجنب الصورة التي رسمها الإمام الحسين:

(أما الصورة التي أعطاها الحسين عليه السلام فهي أنه ينبغي الحفاظ على الذات ولا على المال ولا على الأسرة، إن كان ذلك يرضي الله تعالى)[1].

نظرية العرفاء في الفرح والبكاء:

لذا لايمثل الحزن والبكاء على الإمام الحسين سوى مرتبة ضعيفة من مراتب الارتباط بقضية الحسين، حيث إن القضية هي قضية انتصار ومقدرة بمنح الحق كافة ما يملك الحسن للحق والعدل. ومن هذه الجهة تكون قضية الإمام الحسين قضية فرح واستبشار بنيل أعلى مراتب القرب الإلٰهي:

(البكاء لا معنى له، لأن ثورة الحسين عليه السلام موجبة للاستبشار. فالحسين عليه السلام وفق إلى توفيق عظيم، ورزق مثل هذه الشهادة. فينبغي أن نفرح للحسين عليه السلام. وكذلك أصحابه نالوا الشهادة والسعادة أيضاً. فإننا نسعد بسعادتهم، ونرضى لهم هذا المقام الكبير، فلا تحتاج المسألة إلى بكاء)[2].

---

(١) شذرات من فلسفة تاريخ الإمام الحسين: ص٥٠.

(٢) المصدر نفسه: ص٦٩.

وهذا في الحقيقة قريب جداً من تحليل السيد هاشم الحداد، بحسب مذكرات محمد الحسين الطهراني في كتابه الكبير «الروح المجرد».

وهكذا حوت واقعة كربلاء على جنبتين، الحزن والفرح، حزن على المجزرة الوحشية التي تعرض لها الإمام الحسين وأنصاره وأهل بيته. وجنبة سرور وبهجة بما ناله الإمام الحسين وصحبه من مقامات عالية في رضى الله سبحانه.

(وكلا هذين الجانبين المشار إليهما ناجزان فعلاً في حادثة الحسين عليه السلام. ويحتوي كل منهما على نقطة قوة ونقطة ضعف، ينبغي أن نلاحظهما لكي نعرف القيمة الحقيقية لكل منهما أولاً. ولماذا اختير الجانب الثاني المأساوي في هذا الصدد.

ولكل نقطة قوة في أحدهما يقابله نقطة ضعف في الجانب الآخر. فنقطة القوة في الجانب الأول، هي كونه جانباً آخروياً محضاً، تقابله النقطة في الجانب الآخر، وهو كونه جانباً دنيوياً. لوضوح أن البلاء الذي عاناه الحسين عليه السلام ومن معه بلاء دنيوي خالص لا يشوبه بلاء آخروي اطلاقاً بل له في الآخرة أعلى المقامات وأرفع الدرجات. ونقطة القوة في الجانب الثاني كونه سبباً لتربية المجتمع تربية صالحة ومؤكدة أكثر من الجانب الأول بكثير. ذلك المجتمع المتربي في حالته الاعتيادية على العواطف الشخصية والأسرية والدنيوية عموماً. إذن فمن المصلحة توجيه هذه العواطف إلى وجهة صالحة ومربية. فكما يبكي المؤمن على ولده أو والديه فليبك على الحسين عليه السلام وأصحابه لينال في الآخرة ثواباً

ويقيم للدين شعاراً. ومن هنا يكون توجيه البكاء والحزن للمؤمنين نحو الدين ونتائجه الطيبة أكثر بكثير مما يوجه الفرح والاستبشار المشار إليه في الجانب الأول.

مضافاً إلى أن الفهم العام لأي شيء بما فيها واقعة الحسين عليه السلام إنما هو ظاهرها الدنيوي وليس واقعها الآخروي، فكان من الأفضل توجيه الناس إلى ما يفهمون والاستفادة لهم بمقدار ما يدركون)[١].

وبهذا يكون البكاء وجانب الحزن، والسرور وجانب الفرح، عبارة عن وسيلة إعلام وتربية فردية وجماعية[٢]. فكما (أن البكاء شكل من أشكال التربية وشكل من أشكال الإعلام)[٣]. كذلك الفرح بالوصول إلى مقام الشهادة والقرب الإلٰهي. خصوصاً وأن البكاء عبارة عن مسلك نفسي للارتباط بالقضية الحسينية:

(وأما الجهة النفسية، فهي لا تكون إلا بالبكاء. فالأمر الرئيسي والأفضل هو توجيه المجتمع إلى البكاء، والنفس هي مركز العواطف. والعواطف مشروعة ومفهومة اجتماعياً لدى الجميع)[٤].

كذلك الاستشهاد بالنفس والمال والأولاد أعلى مراتب الحظوة عند الله سبحانه. وبهذا يكون مقتل الإمام الحسين حقق

---

(١) أضواء على ثورة الإمام الحسين: ص٥١.
(٢) المصدر نفسه: ص٥٢.
(٣) المصدر نفسه: ص٥٢.
(٤) شذرات من فلسفة تاريخ الحسين: ص٧٠.

هدف قريب متعلق بشخص الإمام الحسين، وهو نيل منزلة سيد الشهداء والأحرار. وهدف بعيد متعلق بالأجيال وهو الهداية والإصلاح الاجتماعي المستمر:

(لو لاحظنا هدف الحسين عليه السلام الشخصي الذي يرتبط بمصلحته الشخصية، فهو ليس شيئاً إلا طاعة الله سبحانه. وأما إصلاح المجتمع وهداية الناس فإن الحسين عليه السلام يعلم بها ويريدها، لكنه لا ينبغي أن نقول إنه يهتم بها، فإن الله تعالى هو الذي يهتم بالمجتمع. فهو يريد أن يهدينا عن طريق قتل الحسين عليه السلام. فإذا نظرنا إلى هدف الحسين عليه السلام الشخصي، فينبغي أن نستبشر لأنه وصل إلى هدفه. ولكنه إذا نظرنا إلى هدف الله تعالى في حركة الحسين عليه السلام، أو قل من توجيه الأمر إليه بالقيام بهذه الحركة. فإنه بحسب ما نعرف فإن ذلك مربوط بمصلحة الأجيال الآتية من المسلمين بعد واقعة الطف. يعني أنه قتل من أجل هدايتنا ومصلحتنا)[1].

خطأ في قراءة المدرسة العرفانية:

وفي الحقيقة إن الحديث عن منزلة السرور في قضية الإمام الحسين الذي يصر عليه الخط الصوفي والعرفاني، عبرت عنه السيدة زينب عليها السلام بقوله (ما رأيتُ إلا جميلاً، هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم)، لكن الخط الصوفي يفرط في الأمر (كما هو حال هاشم الحداد في كتاب الروح المجرد)

---

(١) المصدر نفسه: ص٦٩.

فالقضية لاتستدعي كل هذا الإطراء على موقف الفرح، إذ إن جانب المأساة هو الغالب، لكون البكاء ليس على القتل الوحشي للحسين وأهل بيته وأنصاره، وإنما لانتهاك حرمات الله، ليس البكاء فقط للشخص المبارك وإنما البكاء والتأثر لوحشية الإعتداء على الموقف والعقيدة والمبدأ. وبتعبير الإمام الصادق (بك انتهكت حرمة الإسلام).

فصحيح أن القضية من الزاوية الشخصية البحتة المتعلقة بالإمام الحسين والله سبحانه، بين أنصار الإمام الحسين وبين ربهم وقيم السماء، كانت مسألة عيد لعروج الفراشات إلى الضوء، حيث كان الإمام الحسين (يدعو أصحابه إلى الموت كأنما هو يدعوهم إلى مأدبة لذيذة، ولقد كانت لذيذة حقاً لأنه وهو ينازل الباطل يرتسم له برهان ربه الذي هو مبدؤه، ويسمع صوت الله الذي هو صوت ضميره، ثم يشد على القوم، وهو لا يرى بناظريه إلا هذه الكلمات الثلاث: الله، رسوله، القرآن)[1].

إلا أن القضية من جهة تمثل رمز الله ورسوله والقرآن على الأرض تعرض لانتهاك بل إلى أبشع انتهاك حيث تم محاصرته وذبحه وسلب ملابسه وتشريد وضرب أطفاله ونسائه، حيث تقابلت البراءة والرحمة مع الخبث والبربرية.

---

(١) عبد الله العلايلي: سمو المعنى في سمو الذات: ص١٠١.

الحب الولائي والحب المجرد:

وليس الحب هنا في تعلقنا بالإمام الحسين وقضيته، هو الحب المجرد فهذا محض عاطفة عابرة يمكن أن تتغير وتزول بل وأن تنقلب إلى النقيض، وإنما المقصود هو الحب بدرجة الولاية:

(إن العاطفة النفسية لا فائدة من ورائها، وهي ساقطة تماماً. فإذا كان مجرد الحب لهم هو الذي ينجي، فإن كثيراً من الناس ممن هو خارج التشيع، وخارج الإسلام، يحبونهم ويحترمونهم بدرجة معتد بها. فهل نعترف بأنهم نأجون؟

فالولاية تشير إلى شيء يكون سبباً للنجاة. والحب وحده لا يكون كذلك، إذن فلابد لنا أن نصرف الآية عن ظاهرها إلى ما يكون سبباً للنجاة، وهو الولاية)[1].

هذا بالإضافة إلى:

(أننا لو تعمقنا بمقدار معتد به، نرى أن كثيراً ممن يدعون أنهم محبون لأهل البيت عليهم السلام كاذبون، (لأن المحب لمن يحب مطيع) في حين أننا نرى أن حياتهم ليست مبنية على الطاعة. إذن فالحب الحقيقي مساوٍ للولاية الحقيقية تساوي المثلين، فيبدأن من نقطة واحدة وينتهيان إلى نهاية واحدة)[2].

لذا ليس من الصحيح طرح قضية كربلاء بجانب الحزن

---

(١) شذرات في فلسفة تاريخ الإمام الحسين: ص٢٦.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٦.

والألم فقط، فهي قضية الأمل أيضاً. وليس من الصحيح طرح شخصية الإمام الحسين شخصية منكسرة فهو بقي يمثل الصمود حتى لحظاته الأخيرة. وحتى حينما بقي يطلب النصرة والمعين، فهذا كان توضيحاً منه لتكاليف ووجابات ومسؤوليات الآخرين، وليس تعبيراً عن انكسار نفسي.

قضية كربلاء هي جدل الإيمان والحب والمسؤولية، حيث تكتسب التعاليم الدينية قيمة التآزر مع الأمل الإنساني، فيغدو الأمر والنهي الإلهي جزء من الوجدان وقوة العاطفة:

(وثورة الحسين إنما هي خروج محبٌ من أجل الجماعة، ولو كان هذا الخروج مُحبٌّ من أجل الجماعة، ولو كان هذا الخروج الثوري مودياً بحياته وحياة أبنائه وبناته. إن الحسين يُطلب الإصلاح في أمة جدِّه، «خير أمة أخرجت للناس» بثلاثة مواقفه: الايمان، والأمر، والنهي، تلك المواقف المكتوبة في التوراة والإنجيل)[1].

صرخة المعنى:

وبهذا كانت صيحة الإمام الحسين بطلب النصرة، ليست تعبير عن ضعف شعر به الإمام الحسن عليه السلام، وكيف يشعر بالضعف من كان مع الله دائماً؟!، الإمام الحسين كان بذلك يحاول إلقاء الحجة على من حضر، ودعوة التواصل مع عشاق

---

(١) أنطوان بارا: «الحسين في الفكر المسيحي» ص١٩. الطبعة الرابعة ٢٠٠٦. لبنان.

الحرية ومحبيّ الصمود والمقاومة والكفاح في كل جيل، خصوصاً وأن معسكر الإمام الحسين كان يدافع عن الإنسان وعن الأمة «وفضح وخيانة المعسكر الأموي، وكل أعداء الحق على مدى التاريخ»[^1]، ومعكسر الأمويين كان عبارة عن جنود مرتزقة يطلبون المال والدفاع عن العصبية العشائرية أو المناطقية[^2].

فجملة وعبارة الإمام الحسين «ألا من ناصراً ينصرنا» هي راية تعلو في وسط معركة مستمرة لا تتوقف تدعو الأجيال أن تلتف حولها كي لاتسقط الحرية تحت سنابك خيل الفساد.

(وما يمكن أن يتصور من فوائد لهذه الجملة، عدة أمور:

الأمرالأول: طلب الناصر ممن يولد ويوجد خلال الأجيال، ليكون محباً للحسين عليه السلام سائراً في طريقة مضحياً في سبيل دينيه بمقدار ما يقتضيه حاله. وكل من كان كذلك في أي زمان ومكان فقد أجاب الحسين عليه السلام للنصرة.

الأمر الثاني: طلب الناصر من البشر الموجودين في ذلك العصر، وتذكيرهم بمسؤوليتهم الكبرى المباشرة في الذب عن إمامهم المعصوم عليه السلام. إمام الله عز وجل. وذلك يكون موازياً لمضمون ما ورد من أن «من سمع واعيتنا ولم ينصرنا اكبه الله على منخريه في النار»

الأمر الثالث : طلب الناصر من الجيش المعادي الواقف

[^1]: شذرات في فلسفة تاريخ الحسين: ص٥٠.
[^2]: أضواء على ثورة الإمام الحسين: ص٥٨.

أمامه في ذلك الحين. وذلك لنتيجتين: لأنهم كلهم حين يسمعون ذلك فإما أن يستجيب منهم أحد أو لا فإن لم يستجب كان هذا النداء حجة عليه وقهراً له في الآخرة، وتركيزاً لأهمية عقابه وإن استجاب بعضه مكان ذلك النداء رحمة له وسبباً لتوبته وهدايته)[1].

ولغرض وصول صوت الحسين إلى الأمة الحاضرة والأجيال المستقبلية، حمل الإمام الحسين عائلته معه كي يكونوا الناطقين أمام المجتمع والتاريخ بما اقترفته سلطة الظلام من جرائم شنعاء بحق الحقيقة والرسالة:

(إنهم جاؤوا معه أو أنه أخذهم معه، بحسب الحكمة الإلٰهية ليكمّلوا ثورة الحسين بعد مقتله، كما حصل ذلك على أفضل وجه. وذلك بأن يكونوا ناطقين أمام المجتمع بأهداف الحسين وأهميّة مقتله والإزراء بأعدائه. ويمارسوا الإعلام الواسع حينما لا يكون الرجال قادرين على ذلك بعد موتهم واستئصالهم.

وهذا الإعلام كان ضرورياً للمجتمع تماماً، وإلا لذهبت حركة الحسين عليه السلام في طي النسيان والكتمان، ولما أثرت أثرها البليغ في مستقبل الدهر. فكان من الضروري في الحكمة الإلٰهية وجود النساء معه لكي يعبّرن عن الحسين ويدافعن عنه بعد مقتله. ومن هنا (شاء الله أن يراهن سبايا). لأن هذا السبي دليل عملي قاطع على فضاضة أعدائهم وما يتّصفون به من القسوة واللؤم وعدم

---

(١) المصدر نفسه: ص٥٣.

العناية بالدين وهذا وحده يكفي للإعلام إلى مصلحة الحسين عليه السلام فضلاً عن غيره (...) وهذا التعريف كما يصلح أن يكون تبكيتاً وفضحاً لأعداء الحسين عليه السلام في كل جيل. وردعاً عن التفكير في مثل هذه الجريمة النكراء لكل حاكم ظالم على مدى التاريخ.

كذلك يصلح لهداية الناس نحو الحسين وبالتالي نحو دين الله عز وجل ونحو أهداف الحسين الإلٰهية وبالتالي نحو طاعة الله عز وجل والتربية الصالحة في إطاعة الدين وعصيان الشهوات والتمرد على كل ظلم وفساد، سواء كان في المجتمع أو في النفس الأمارة بالسوء)[1].

لقد حول الإمام الحسين الخذلان إلى عزم، والهزيمة إلى كفاح، والنصر إلى راية تتناقلها عزيمة الأجيال:

واستشهاد الحسين بهذا الشكل الدراماتيكي المؤلم، رفعه فوق رتبة الشهداء فصار سيدهم ومعلمهم لا سيما إذا نظرنا الوسائل والكيفيات التي تمت بها شهادته مختتماً بها ثورته المنتصرة رغم خذلانها.

ففي الهدف ثبت أن ثورة الإمام كانت دفاعاً عن كل الرسالات السماوية التي سبقتها، ما دام هدف الرسالات تقديم المثال الحي على خلودها بالاستشهاد المعمد بالدم، والشهيد تمم بها ما بدأه جميع الأنبياء الذين ذاقوا الاستشهاد حرقاً وقتلاً وذبحاً وصلباً.

---

(١) المصدر نفسه: ص٦١ ـ ٦٢.

وفي الكيفية والوسيلة نرى أن ليس ثمة ثورة تشبه ثورة الحسن بكيفيتها ووسائلها، فقد كان سبط النبي عليه السلام مُصلحاً كبيراً انبثق من جموع الأمة، وله صفة بشرية واحدة، لا صفة رسولية كما للرسل، فكان عليه أن يسلك في كفاحه مسلك البشر المعذَّبين والمحاصرين، ويلجأ إلى الوسائل البشرية المحدودة في صراعه المستميت ضد حاكم غاشم وسلطة فاسدة منكِّلة تبغي الانحراف بالعقيدة تحت لوائها، وكانت المهمة الملقاة على سيد الشهداء غاية في الصعوبة، فقد كان الإسلام وليداً لما يزل يحبو، وقد اجتاز فترة مولده وفتوحاته الأولى، واسترخت الأمة الإسلامية بعدها ودب الخلاف في أوساطها، وصارت الأطماع الدنيوية هي المحك لنفسية المسلم آنذاك بعد أن نجحت سياسة الأمويين في تدجين الأمة وتركيعها وإقامة خلافة كسروية مدعومة باستقراطية وثنية محرّفة ناصبت القائمين على الإسلام العداء، والتي نجح الرسول ﷺ في القضاء عليها في حياته، لأنها انضوت تحت لواء الإسلام واعتنقت العقيدة سعياً وراء مصالحها الشخصية وما كان أكثرها.

ومن هنا تجلت صعوبة المهمة التي أخذها الحسين على عاتقه، وهي النهوض بأمة الإسلام من خدرها وإعادتها إلى الصراط المستقيم الذي بشّر به جده الكريم(١).

---

(١) الحسين في الفكر المسيحي: ص٨٩.

ليس بالمعجزات تُصنع الثورة ويرتقي الإنسان:

وقد استخدم الإمام الحسين وسائل بشرية في صنع الثورة، لم تكن ثورة الحسين معتمدة على المعجزات والخوارق وميتافيزيقيا الاتكالية على الغيب. وبهذا قدمت ثورة الإمام الحسين الدليل التجريبي على إمكانية سمو الإنسان العادي إلى رتبة الأنبياء إذا ما اهتدو بهداهم فالإمام الحسين:

(كان مُعداً لهذه الشهادة وهذا السمو، لكن بوسائل بشرية، كي تتم شهادته وتكون قدوة لكل البشر الذين يقنعون بضعفهم البشري عن القيام بالجهاد، فتكون ثورة سيد الشهداء هي المثل الحي على إمكانية تحويل البشر إلى شبيهي الرسل)[١].

وعلى هذا أساس هذه الفهم كان تأسس معنى معنوية التواصل والمعية المعنوية فكان شعار «ياليتنا كنا معكم» عبارة عن توجه يجعل الحسين محراب تتوجه فيه القلوب إلى الله والحرية وحس الاستقلال والكرامة، فحيث تستحيل العودة إلى الماضي، أمكن جعل الارتباط الحسيني قضية أمل المستقبل[٢]. فالحسين باب الرحمة الكبرى والأمل المشاع الذي يمكن أن يلجأ إليه الناس على كافة طبقاتهم ومستوياتهم الثقافية والروحية[٣]. وهذا لا يعني أن الحسين باب لشفاعة غير مشروطة بشروط الالتزام

---

(١) المصدر نفسه: ص٩١.

(٢) أضواء على ثورة الإمام الحسين: ص٦٦.

(٣) المصدر نفسه: ص٦٨.

والعمل والمسؤولية، كيف؟ وثورة الحسين هي ثورة من أجل إحياء الضمير وحسّ المسؤولية؟!(١)».

الصندوق الأسود لمذبحة الحرية:

ولكون حادثة مجزرة كربلاء، كانت مسألة سرية تحاربها الدولة الأموية والعباسية ومن الحكومات المتعاقبة، حتى العصر الحديث، فإن الوصول إلى قصة متكاملة موثوقة عما حدث فعلاً ليس بالأمر ألهين، فالأئمة الثلاثة عليهم السلام، الذين أعقبوا الإمام الحسين تحدثوا بالمعنى وليس بنص ما وقع من أحداث وكلام بين عناصر الواقعة الكربلائية، والنساء اللواتي كنّ محجوبات عن أرض المعركة، ومن بقي من الأطفال امثال أحمد بن مسلم بن عقيل والحسن المثنى لم يكونوا يعون بشك كامل ما وقع، هذا بالإضافة إلى الرواة أخفوا أسمائهم خوفاً عليهم في تلك الأيام العصيبة، فجاءت الروايات مقطوعة السند، ويؤكد محمد صادق الصدر هنا على اعتماد منهج العلانية والروية والحيطة والإصرار على الطرق العلمية، بعيداً عن الاعتماد على كتب النقليات وعلى اعتماد الحدس وإجماع من سلف وعلى العرفانيات والكشف الصوفي وما إلى ذلك(٢).

ويحذّر السيد الشهيد محمد محمد صادق الصدر من خطورة ممارسة خطباء المنابر والشعراء، المعتمدين على وسيلة النقل

---

(١) المصدر نفسه: ص٦٩.

(٢) المصدر نفسه: ص٧٤.

بالمعنى والرواية عن الحال، فنحن لانعلم بما كانت تنطوي عليه سرائر الأئمة وأصحابهم، هذا بالإضافة إلى أن مستوانا الثقافي لايصل إلى مقام عقلياتهم، وعزيمتنا الروحية لايمكن مقارنتها بمراتبهم الروحية، فكيف يمكن أن ننقل معنى أحوالهم؟!:

(إننا لا نستطيع أن نعلم حالهم رضوان الله عليهم، لا الحسين عليه السلام ولا أصحابه ولا نساءه ولا أي واحد هناك منهم. لأنهم أعلى وأجل من أن نعلم ما يدور في خواطرهم وما تخفيه سرائرهم. في حين أننا بعيدون عنهم زمناً ومكاناً وثقافة ومستوى. وغير ذلك. إذن فنحن جاهلون بحالهم لا أننا عالمون به لنستطيع التعبير عنه بأي حال من الأحوال. وإنما يجوز الحديث بلسان الحال مع إحراز المطابقة للواقع. وأنّى لنا ذلك؟)[١]

تجاوزات في ذهنية المنبر:

وعلينا أن نلاحظ في هذا السياق أن «لسان الحال» يخص ما وقع من أقوال وليس الأفعال[٢]. وإذا كان الإبطال العاديين لايمكن للعرف أن يصل إلى أحوالهم فكيف بسيد الشهداء وأئمة البشرية؟!

وللأسف الشديد باتت وسيلة النقل بلسان الحال، ونقل كلام يلائم العرف العام وسيلة للتلفيق من قبل خطباء المنابر

---

(١) المصدر نفسه: ص٧٣.

(٢) المصدر نفسه: ص٧٤.

والشعراء، بل والكذب الصريح وتدليس الخيالات[1]، بغية إرضاء الجمهور أو الانصياع للمفاهيم والحكايات السائدة، أو لمجرد التكسب بتجارة الدين التي يحترفها بعض المحسوبين على الخط الديني التبليغي.

وينتقد الصدر الثاني سلوكيات بعض خطباء المنابر المتزلفين لأصحاب المال والشأن الاجتماعي، فيدعون أن الأئمة أو السيدة الزهراء تحضر مجالسهم:

(وأنا سمعت عدة مرات من عدد من الخطباء يقسم أن الزهراء عليها السلام حاضرة في هذا المجلس، ويشير إلى المجلس الذي يتحدث فيه. أو يقول: أنا أعتقد أنها حاضرة. وأما أنا فأعتقد أنه يتزلف بذلك إلى صاحب المجلس، وإلا فالمعصومون عليهم السلام لا يحضرون إلا مع الإخلاص الكامل لدى صاحب المجلس. والمهم الآن أن نلتفت إلى أن الزهراء عليها السلام انما تحضر بالحضور الروحي لا بالحضور الجسدي. ولذا يتصورها المتشرعة تنزل من علياءها من فوق، لا أنها تدخل من الباب كما يدخل الآخرون)[2].

ويصل بعض خطباء المنبر بشيطنة كاملة لجميع أفراد المعكسر الأموي، مع أن هذا مخالف لعلم الاجتماع وطبيعة النفس البشرية التي تعشق الكمال مهما كانت هي محاربة ومعادية له. فليس من الصحيح حذف بعض خطباء المنبر لبعض الأقوال

---

(١) المصدر نفسه: ص٧٤.

(٢) شذرات في فلسفة تاريخ الحسين: ص١٠٢.

الحقة والصائبة لبعض أفراد الجيش الأموي، فالحقيقة يمكن أن تظهر على لسان المجانين والأشرار أيضاً:

(وهـم، أعـنـي الـخـطـبـاء، يـريـدون أن يـبـرزوا أعـداء الحسين عليه السلام وأعداء المعصومين عليهم السلام على أنهم باطل صرف، ليس لديهم أية جنبة من الحق مهما قلت. يبرزونهم شياطين خالصين في كل أقوالهم وأفعالهم. مع العلم أن هذا مخالف للواقع غالباً لأمرين:

الأمر الأول: وجود ذلك في كثير من أهل الباطل.

منها: هذه الرواية عن الوليد.

ومنها: بكاء عمر بن سعد على الحسين عليه السلام.

ومنها: كتاب هؤلاء المنافقين إلى الحسين عليه السلام كحجار بن أبجر ورهطه وهو أشهر كتب الكوفة، مع ان حجار بن أبجر أصبح قائد كتيبة ضد الحسين عليه السلام في كربلاء.

ومنها: قول معاوية في بعض خطبه: إني ما قاتلتكم لتصلوا أو تصوموا وإني أعلم أنكم تفعلون ذلك، وإنما قاتلتكم لأتأمر عليكم. وإني عاهدت الحسن بأمور وها هي تحت قدمي.

فهم يحذوفون قوله: وإني أعلم أنكم تفعلون ذلك، لأن فيه نحواً من العذر لهذا الطاغية.

الأمر الثاني: إن النفس الإنسانية خلقها الله تعالى تميل إلى الخير والشر معاً، وكل مجموعة من سلوك الفرد إنما هو ناشئ من هذا ومن هذا معاً، قال الله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾.

والناس مختلفون تماماً في انصياعهم لهذا العامل أو ذاك. فمنهم من يكثر خيره، ومنهم من يكثر شره، على درجات مختلفة ومتباينة تبايناً شديداً.

وليس أعداء الحسين عليه السلام في استثناء من ذلك. كما أنهم ليسوا على غرار واحد في التصرف تجاه الشر، وإن وجد من يكون كذلك فعلاً كيزيد بن معاوية وشمر بن ذي الجوشن. فإن جانب الخير قد يموت في نفس الإنسان تماماً إذا بلغ ذروته في درجات التكامل الادنى. كما أن جانب الشر قد يموت تماماً إذا بلغ الفرد ذروته في درجات التكامل الأعلى.

فالمهم أن الدرجات الوسطى ذات التذبذب بين الخير والشر هم أكثر البشر، وهم موجودون في كلا المعسكرين: معسكر الحق ومعسكر الباطل. فبينما نجد الفرد أكثر تصرفه على الحق، نجد فيه شيئاً من الباطل وبينما نجد الفرد أكثر تصرفه على الباطل نجد فيه شيئاً من الحق. وهذا ضروري في أي فرد بصفته ناتجاً من رسوخ كلا الجانبين في نفسه.

والمهم الآن: كمفكرين وباحثين ينبغي لنا أن نكون موضوعيين ومتجردين لدى البحث عن أي إنسان. فننسب له كل أفعاله وأقواله. ولا ننكر منها شيئاً لمجرد الغرض في أنفسنا. فإن ذلك من الكذب ولا يحسن أمام الله ولا أمام التاريخ والإنسانية.

بل الأمر أكثر من ذلك، فقد نستفيد من كلمات الحق التي قالها الآخرون، فمثلاً نقول: أنه شهد بحرمة قتله الأعداء،

كما قال الوليد. أو بكى عليه الأعداء كما بكى عمر بن سعد. أو أن نستشهد بفضائل أهل البيت الموجودة في كتب الجماعة وهكذا.

نعم، غرض الخطباء في كتم ذلك هو تحصيل الدمعة عند العوام. وهذا هدف طيب في نفسه، باعتباره مصداقاً لما ورد: من بكى أو أبكى أو تباكى وجبت له الجنة. مع العلم أنهم لو نقلوا جوانب الانصاف القليلة الموجودة لدى بعضهم لتعجب منها العوام وانقطع بكاؤهم.

وأنا أقول: إن هذا صحيح، إلا أنه لا ينافي أننا في الأبحاث الدقيقة والموضوعية، ينبغي أن نذكر كلا الجانبين ونعطي كلا الحقين. والا لم نكن نحن منصفين، وكان حذفه بمنزلة الشهادة بعدمه وهو كذب. ولا أقل إذا لم يكونوا هم من المنصفين فلا بد أن نكون نحن من المنصفين).

وهنا يتفق محمد الصدر مع محمد حسين فضل الله، على ضرورة مزج عنصر الالتزام وعنصر الحب للحسين وأهل البيت لإنتاج عنصر الولاء[1]، فلا تكون قضية الحسين قضية عقلية تجريدية جامدة، ولا قضية عاطفية مائعة.

دموع الانتماء السلوكي وليس التأثر المؤقت:

كما أنه لامعنى لجعل البكاء على الحسين سبباً كافياً لدخول

---

(١) محمد حسين فضل الله: «من وحي عاشوراء»، ص٤٨.

الجنة كما يقول البعض، فدخول الجنة لا يكون إلا بحفظ شرائط ضروريات الدين فمن حفظها وبكى على الحسين يكون قد أحرز ثواباً فوق آداء الواجبات، أما البكاء لوحده بدون الحفاظ على ضروريات وروح الدين، فإنه محظ تخدير وتعطيل للدين وتشويه للقضية الحسينية[1].

والإمام الحسين عليه السلام نفسه لم ينل تلك المقامات إلا بالتطبيق والسلوك والشهادة العملية وليس محض النية والعاطفة الدينية المجردة، فكيف يكون المنتمي إليه يكتفي بالقول عن العمل والبكاء والتباكي عن العطاء والتضحية؟!، كيف يعقل التناقض بين المنتمي والمنتمى إليه؟!:

(إن الفضل الذي ناله الحسين وأصحابه من الله سبحانه ليس مجانياً ولا يمكن أن يكون كذلك. ولذا ورد: «لك مقامات لن تنالها إلا بالشهادة». فقد دفع الحسين عليه السلام تحمله لأنواع البلاء الدنيوي بما فيه نفسه ونفوس أهل بيته وأصحابه فداءً لذلك الفضل العظيم. فهل سيكون الفرد على استعداد أن يشاركه في جزائه أم يتمنى الفرد أن يحصل على ثواب الحسين عليه السلام مجاناً مع أن الحسين عليه السلام نفسه وهوالمعصوم لم يحصل عليه إلا بالثمن الغالي. إن هذا من سخف القول حقاً!!)[2].

حيث إن مجرد البكاء واستعادة حكاية مقتل الإمام الحسين

---

(١) أضواء على ثورة الإمام الحسين: ص٧٦.

(٢) المصدر نفسه: ص٦٨.

هو قول فإذا لم يرتبط بالعمل بات بلا قيمة كما فصلنا ذلك في بحث آخر حول مفهوم علم العمل وعلم العلم ونظرية السيد الصدر الثاني في الفقه الأخلاقي[1].

درب البكاء أم درب العطاء؟!:

علينا أن نحذر إذن من المنقولات التي تغالي في منزلة البكاء على الحسين وتبالغ به مثل الرواية التي تقول إنه من بكى أو تبكى على الحسين فقد وجبت له الجنة، رغم صحة جملة من الروايات وكون البكاء طريقة من الاحتجاج، حيث إننا نلاحظ:

(**أولاً**: ضعف سند هذه الرواية. فلا تكون معتبرة.

ثانياً: إن متعلق البكاء لم يذكر في هذه العبارة، ومعه يكون من الواضح. إنه ليس كل أهداف البكاء مشروعة أو لا ثواب عليها على الأقل.

أو قل لا تجب له الجنة بكل تأكيد. كمن بكى للدنيا أو لمصيبة عاطفية ونحوها. إذن فالأمر مقيد بالبكاء المرضي لله ﷻ.

ثالثاً: إن متعلق البكاء لم يذكر في هذه العبارة، حتى الصالح منه يعني يقل: إن البكاء من أجل الحسين عليه السلام كما يفهم المشهور أو من خوف الله ﷻ أو شوقاً إلى الثواب أو أي شيء آخر. ومن هنا لا دليل على اختصاصه بالحسين عليه السلام.

رابعاً: إن وجوب الجنة بل مطلق الثواب، لا يكون إلا

---

(١) محمد الصدر كفاح الجماهير: ص١٣٩.

بحفظ الشرائط الأخرى الضرورية في الدين، لوضوح عدم شمولها للكفار والفسقة وأضرابهم إذن فيكون المعنى: (من أضاف إلى حسناته البكاء وجبت له الجنة). ومن الواضح أنها لم تقل ذلك بوضوح. إذن، فيبقى إطلاقها غير ثابت.

خامساً: إن وجوب دخول الجنة غير محرز لأي إنسان غير معصوم، ما يمت مرضياً لله ﷻ. وأما زالت حسناته بظلم أو سوء ونحو لم يستحق الجنة بكل تأكيد. والشاهد على ذلك قوله تعالى ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ والسيئات قد تذهب الحسنات كما أن الحسنات قد تذهب بالسيئات. ومعه فيكون المعنى: (من داوم على الطاعة طول حياته مع البكاء وجبت له الجنة). ومن الواضح أنه لم يقل ذلك، كل ما في الأمر أن التمسك بإطلاقها مشكل.

سادساً: الإخلاص في العمل لم تنص عليه الرواية، وهو البكاء في سبيل الله من دون عجب ولا رياء. فلو بكى الفرد على أمواته أو على مصاعب الدنيا لم يستحق الجنة فضلاً عن أنها تجب له)[1].

تصحيح في رواية الواقعة:

ويتابع الشهيد محمد صادق الصدر تصحيحه لواقعة كربلاء باستبعاد حصول جيوش لا حصر لها قاتلت الإمام الحسين كما

---

(١) أضواء على ثورة الإمام الحسين: ص٧٦.

يقول البعض، فالإمام الحسين كان شخصية معروفة، وكان أنصاره شخصيات اجتماعية بارزة من الصعب تحقيق أعلام ضدهم، كما أن سكان أهل الكوفة لم يكن بتلك الضخامة، بالإضافة إلى بدائية الجيوش في تلك الفترة(١). ثم أن من المستبعد أن تتمكن سلطة التحريف من جمع جيش جرار من أهالي الكوفة وهي مدينة الإمام علي صلوات الله عليه وعاصمة شيعته حتى وقت قريب(٢)، كما أن جهود مسلم بن عقيل التي أثمرت كسب قلوب الناس وكتابة المواثيق لا يمكن أن تنقلب إلى النقيض بين عشية واضحاها فهذا مما يأباه علم النفس(٣).

وعند هذا الحد يعقد السيد محمد صادق الصدر فصلاً مهماً في نقد خطباء المنابر ويقدم جملة من التوجيهات العلمية والسلوكية لهم، حيث يجب أن يكون ذكر الحسين مرتبط بالتوحيد وليس منفصلاً منه أو مستقلاً عنه، فلا بد من الابتداء بالبسملة بشكل دائم. وأن تكون ذكرى عاشوراء تذكير اخلاقي ووعظ سلوكي. وان يكون الكلام سليماً من إثارة الفرقة المذهبية أو التعريض بالأقليات الدينية. والتزام التورع من الكذب والإضافة على حوادث التاريخ وأقوال الأئمة عليهم السلام. وأن يراعي الخطيب المستوى الذهني للناس فلا يتطرق لنظريات معقدة تسبب التشكيك وتشتيت الطاقة الذهنية للمجتمع. ويحرص الصدر الثاني هنا على

---

(١) المصدر نفسه: ص٨٣.

(٢) المصدر نفسه: ص٨٥.

(٣) المصدر نفسه: ص٨٦.

مفهوم «الكرامة الإنسانية» فهناك حوادث مشينة وقعت بسبب لأ اخلاقية العدو وأبناء الخط الأموي، وصلت حد انتهاك كرامة الأجساد بما يمس مواضع العورة منه، وهنا يجب عدم التطرق إليها لكونها تحتوي على انتهاك للكرامة[١].

كما يحرص الصدر الثاني على ضرورة انسجام النقل التاريخي مع سنن القوانين الطبيعية، خصوصاً وأن ثورة الإمام الحسين اعتمدت على الأمور الواقعية العادية، ولو كان الأمر قائم على المعجزة لما خاض الإمام الحسين غمار الحرب أصلاً[٢].

كما لابد على الخطيب أن لايورط نفسه ببحوث اختصاصية هي فوق طاقته فيقوم بفلسفة أحداث واقعة كربلاء من عندياته بدون اعتماد أهل الاختصاص. فطرح أمور تهم قضايا الناس أولى وأهم من الانشغال بمعرفة تأويلات مقامات الأئمة وغيرها من الأمور التي تحتاج إلى تخصص[٣]، كما يجب أن نراعي مستوى ذهنيات العامة من البسطاء وجمهور المتلقين فلا ننشغل بدحظ المتسالم لديهم من نقليات وقائع التاريخ التي يمكن تجاوزها والتي هي أمور غير أساسية لا علاقة لها بالعقيدة وجذب الناس نحو الطاعات[٤].

---

(١) المصدر نفسه: ص٨٨ ـ ٨٩.

(٢) المصدر نفسه: ص٨٩.

(٣) المصدر نفسه: ص٩١.

(٤) المصدر نفسه: ص٩١.

والحذر من الإضافة الكاذبة في النثر أو الشعر المنقول. خصوصاً وأن هناك جملة من المتصدين أضافوا بعض الأبيات على قصائد معروفة بغية التأثير العاطفي من دون أن يبالوا بأن هذا من الكذب المحرّم:

(إن بعض الشيعة خلال الأجيال، كانوا يتقربون إلى الله تعالى بإيجاد إضافات إلى الأشعار المسموعة والموروثة اتباعاً لنفس هدف الشاعر الذي هو نظيف وفيه هدى وموعظة. ولا يعلمون أن هذا من الكذب الحرام، لأنها تكون منسوبة إلى الشاعر نفسه، وهو خطأ)[1].

مسلم بن عقيل، محنة الأسئلة:

وفي فصل خاص حركة مسلم بن عقيل الذي يرتبط بالإمام الحسين برابطة الأخوة المعنوية على غرار مؤاخاة النبي للإمام علي عليه السلام[2]، ولماذا أنه لم يستخدم الانقلاب العسكري والمبادرة إلى السيطرة المسلحة، يوضح الصدر الثاني أن حركة الإمام الحسين ليست حركة زمانية لذا فهي لها علاقة بالأجيال المستقبلية التي يمكن أن تخرج من صلب المنافقين والمعاندين. كما أن حركة الإمام الحسين لايمكن فهمها بدون عنصر التاريخ والتاريخانية، فلو أن مسلم بن عقيل والإمام الحسين لجأا إلى انقلابات عسكرية ضخمة داخل المجتمع الإسلامي لكان يمكن أن

---

(١) شذرات في فلسفة تاريخ الإمام الحسين: ص١١٣.

(٢) أضواء على ثورة الإمام الحسين: ص٩٥.

يؤدي ذلك إلى هدم كيان الدولة نفسه وليس إزالة الحكومات الظالمة مما يُسهل عملية دخول القوى الأجنبية التي كانت تتربص بالإسلام يوم ذاك[1].

ولكون الإمام الحسين وأصحابه كانوا يريدون تحقيق رسالة أخلاقية، لم يقم مسلم بن عقيل بالغدر بعبيدالله بن زياد في دار هاني بن عروة، فهذا الخط الرباني لا يبتدر أحداً بالقتال والحرب، ولا يتكل على فكرة أن الغاية تبرر الوسيلة[2]. وعلى أساس مبدأ حفظ المجتمع والحيلولة دون وقوع حرب أهلية، لم يعمد مسلم بن عقيل تشكيل مليشيات وجيش داخلي يواجه الحكومة الرسمية، فالقضية ليست قضية القضاء على حكومة آنية وإنما تحقيق رسالة دائمة[3].

كما أن ثورة الإمام الحسين هي ثورة وجدانية بالدرجة الأولى، وليست فكرية فقط، خصوصاً وأن ذلك المجتمع لم يكن جاهلاً بأحقية الإمام الحسن لكن الضمائر ماتت والأرواح أظلمت. وهذه الثورة قام بها شخصيات عملاقة وشامخة أخلاقياً أمثال مسلم والعباس ابن الإمام علي، والمبدأ الاخلاقي فوق التجريحات العقلية بين الأهم والمهم، هؤلاء انطلقوا من تشرحات نفوسهم الكبيرة المُشبعة بمكارم الأخلاق والفضائل وتتنزه عن تشكيكات التبرير وحسابات ردود الفعل التي تقتل الفعل

---

(١) المصدر نفسه: ص١٠٠.

(٢) المصدر نفسه: ص١٠٢.

(٣) المصدر نفسه: ص١١١.

الأخلاقي وتعيق سمو الوجدان البشري[1].

هذا بالإضافة إلى أن الكوفة كانت مبتلات بعناصر زرادشتية ونصرانية ومانوية ويهودية، أجلاها عمر بن الخطاب عن المدينة، لعبت دوراً مهماً في تشتيت المجتمع وتثبيط عزائمه[2].

هذا بالإضافة إلى أن عبيد الله بن زياد جلب كبار المجتمع في البصرة كي يحتفي بهم المجتمع في الكوفة وينشغل بهم ويقع في حراجة معارضة ضيوفه. بينما هؤلاء الضيوف الأكابر كانوا أدواة دعاية وتخاذل، كما أن ابن زياد جلب معه خمسمائة فارس مسلح فأوقع الرعب في مجتمع الكوفة وهز عزائمهم[3]. خصوصاً وأن الكوفة لم تكن مدينة استقرار اجتماعي وسياسي، فهي مزيج من أقوام شتى كان للعثمانية مكانة وللخوارج حضور فاعل، وللأقليات الدينية المُهجّرة اتصالات مريبة[4].

وقد كان عبيد الله بن زياد نفسه من أم مجوسية تدعى مرجانة[5]. خصوصاً وأن الكوفة منذ التأسيس عام ١٧ للهجرة، كانت عبارة عن تجمع ثكنات عسكرية للجيش الإسلامي، فهي مقر تضاربات التيارات السياسية والصراعات بين الطوائف

---

(١) للتفصيل راجع مثلاً: أحمد القابنجي: «الله والإنسان» ص١٦٥. الانتشار العربي - بيروت ٢٠٠٩.
(٢) أسد حيدر: «مع الحسين في نهضته»، ص٣٢.
(٣) مع الحسين في نهضته: ص٩٢.
(٤) المصدر نفسه: ص١٢٧.
(٥) خالد محمد خالد: «أبناء الرسول في كربلاء»، ص٩٢.

والقوميات المتعددة الجنسية، كان من بينهم ٢٠ ألف جندي أجمعهم من أبناء فارس[١].

ومن منطلق هذه المبدئية لم يستطع مسلم بن عقيل السيطرة على الكوفة خصوصاً وأن عبيدالله بن زياد خدع أهل الكوفة بكون جيش قادم من الشام سوف ينتقم منهم إن نصروا الإمام الحسين، وقد استطاع بواسطة آلية التجسس من تفكيك صفوف أهل الكوفة والقضاء على معنوياتهم[٢]. وعلينا أن نلاحظ أنه في تلك الأيام كان من السهل جداً تزوير وانتحال الشخصيات حيث لاتوجد بطاقات شخصية ولا وثائق تبين انتماء الناس وجنسياتهم وديانتهم، الأمر الذي يسهل عملية التجسس وانتحال شخصيات مؤمنة وزاهدة ومحبة لأهل البيت كي تخترق الصفوف وتعرف الأسرار كما حدث مع مسلم بن عقيل وشخصية «معقل»:

(فمن الواضح أن العادة في تلك الأجيال، وهي عادة استمرت مئات وآلاف السنين، حتى لم تكن كتابة وأوراق تدل على الشخصية، كما في الدول الحالية. فكان الناس يسألون الفرد عن اسمه وانتسابه، ويصدقون منه ذلك على السجية والعادة المتبعة. وواضح أنه لو كذب أي شخص في اسمه أو نسبه فسوف يقع في أنواع من المصاعب اجتماعياً واقتصادياً. أو يحتمل وقوعه في ذلك على بعض التقدير. فكان الناس يصدقونهم في أقوالهم تلك، وكانوا يصدقون أقوال الآخرين في ذلك. وليس أصحاب

---

(١) مع الحسين في نهضته: ص١٣٢.

(٢) أضواء على ثورة الإمام الحسين: ص١٠٥.

مسلم بن عقيل سلام الله عليه وعليهم، إلا جماعة من ذلك المجتمع المعتاد على ذلك)[1].

متبنيات للكتابة جديدة:

وهكذا قدم الشهيد محمد صادق الصدر أجوبة شافية حول إشكاليات فكرية وتاريخية عويصة، حار فيها المفكرون ومتابعو التاريخ، أمثال خالد محمد خالد وعباس العقاد وغيرهما[2]. وإن كان الانصاف يقتضي التنويه بان بعض احتمالات الصدر التي كان يطرحها هي عرض لأفكار باحثين سابقين مثل فكرة كون أن مسلم بن عقيل لم يقاتل لكونه مجرد سفير ولم تكن لديه رخصة من الإمام الحسين في القتل، فهذه فكرة خالد محمد خالد، أوردها ص٩٨، من كتابه «أبناء الرسول في كربلاء».

وقضية كون الإمام لم يبدأ في القتل أيام معاوية، كي لا يقال أن الحسين ينكث العهد، وهي فكرة أنطوان بارا[3].

والفكرة الأولى مردودة لكون مسلم بن عقيل حاصر ابن زياد في القصر. والثانية ليست صحيحة لكون معاوية نكث العهد فعلاً فقتل حجر بن عدي، وعمرو بن الحمق، واتخاذه سياسة الإبادة الجماعية للشيعة والاستمرار بشتم الإمام علي على المنابر وتزوير الأحاديث النبوية. على أية حال فهناك جملة من الحلول

(١) المصدر نفسه: ص١٠٦.

(٢) أبناء الرسول في كربلاء: ص٩٨.

(٣) في كتابه «الحسين في الفكر المسيحي»: ص٢١١.

التي يذكر الصدر الثاني هي مجموعة آراء لمؤلفين مختلفين لايتطرق الصدر الثاني إلى التنويه بالمصدر، وقد يكون هذا بسبب أن كتاب الشذرات هو مجموعة محاضرات في الأصل، أو لكون وحدة الأسلوب تقتضي دمج الآراء على شكل احتمالات أو اطروحات كما يحبذ الصدر الثاني أن يعبّر. لكن في الاجمال أن غالبية الاحتمالات هي أفكار جديدة من اختصاصات الصدر الثاني وحده.

وعلى أية حال فليس من الصحيح ما يهوله بعض خطباء المنبر الحسيني من التفاف حشود هائلة مع مسلم بن عقيل ثم تفرقهم عنه في ليلة واحدة فهذه خريطة ذهنية غير معقولة، تتطلب فترة زمنية طويلة لتحقيقها ولا يمكن أن تحدث في عشية واحدة:

(وهذه (خريطة) ذهنية غير معقولة. ولئن كان يمكن حصولها في مدة طويلة، فلا يمكن حصولها في مدة قصيرة، في عشية واحدة. فلئن كان يمكن تفرق الناس عنه لمدى الضغط والمكر الذي مارسه ابن زياد وأصحابه، غير أنه لا يمكن تآلبهم ضده إلى هذه الدرجة. فإذا علمنا انه كان يحارب وحده حين هجموا عليه الدار، بقصد إلقاء القبض عليه. إذن لم يكن الحاكم في حاجة إلى جيش عرمرم ضده مهما كان شجاعاً ومقاتلاً بارعاً. ويكفي أن يجد ابن زياد من أصحابه عدة مئات يكفونه المؤونة، بدون حاجة إلى أن نتصور إلى أن الكوفة كلها قد انقلبت ضده في عشية واحدة)[١].

---

(١) أضواء على ثورة الإمام الحسين: ص١١٠.

بنية الإنسان الشهيد:

لقد كان الإمام الحسين يبني الإنسان الثوري الذي يقيم رسالته ليس بالتفكير بالانتصار العسكري وإنما بالإصرار على التضحية، فالنهوض بالأمة يحتاج إلى كسر لروح الهزيمة، لذا فالأمر يتطلب روح الاستشهاد كي يتحقق فتح الوعي مرةً أخرى. ومن هنا كان الإمام الحسين يبني الإنسان الشهيد، وهو يخيّر أصحابه أن يتركوه أو أنهم سوف ينالون الموت يقيناً[١].

وقد تحقق أنصار الإمام الحسين نتيجة الوعي التام الذي تم شحذه بالتجربة والاختبار والعزم على ما تمت صحته، باسمى درجات القرب الإلٰهي، إلى مستوى التماهي بالمثل الأعلى وعدم شرب الماء ما دام الحسين وعياله عطشى، فالروح قد تشرب بالروح واختلط العقل بالفؤاد والقناعة العقلية بالعشق القلبي، كما حصل بالنسبة للسيد العباس عليه السلام[٢].

وقد أقام الإمام الحسين عليه السلام، حجة الثورة بوسائل شتى مثل الخطب والتذكير والآيات القرآنية ولبس ثياب النبي، وتقديم الطفل الرضيع، فكانت حجية الثورة شاملة للجيل المعاصر آنذاك ولكل جيل قادم بعد ذلك، وقتل الطفل الرضيع والاعتداء على النساء، هي فضيحة للخط الأموي أينما كان، وهو خط الاعتداء على الإنسان الأعزل[٣]. وشمولية الثورة تقتضي شمولية النصرة،

---

(١) المصدر نفسه: ص١١٤.

(٢) المصدر نفسه: ص١١٥.

(٣) المصدر نفسه: ص١١٧.

فنصرة الإمام الحسين عمل مستمر في كل الأجيال وفي جميع العصور، كل فرد وكل جماعة حسب قدراتهم المالية والجسدية والثقافية:

(فإن النصرة يمكن أن تكون في كل وقت، حتى بعد الشهادة وحتى الآن وحتى في المستقبل، فيمكن نصرته في أي مكان، وفي أي زمان، وفي أي جيل، ومن قبل أي شخص، وعلى كل المستويات.

فيكون المعنى: من سمع واعيتنا أي بعد حصول الشهادة للحسين عليه السلام وأصحابه، فيجب عليه أن ينصرنا في أي زمان ومكان بمقدار ما يستطيع. وما يتيسر له من إمكانيات.

والنصرة أيضاً ليست منحصرة بالقتال، وإن كان هو القدر المتيقن منها، إلا أنها يمكن أن تكون بإطاعة أوامره، وتطبيق شريعته التي قتل من أجلها، وضحى في سبيلها، وكذلك هداية الآخرين نحو أهدافه، وكشف زيف أعدائه. وكذلك تطبيق الإصلاح الذي استهدفه وذكره في بعض خطبه)[١].

فقضية الحسين هي قضية المسؤولية وليست الحياد وطلب الراحة، قضية العمل وليست الكلام، قضية التضحية وليست الربح، فالحسين هو حافظ الشريعة وأحكام السماء ومبادئ الضمير الإنساني الرفيع:

(فإن الحسين عليه السلام فدى نفسه لأجل ذلك، إذن فنصرته تكون

---

(١) شذرات في فلسفة تاريخ الإمام الحسين: ص١١.

بتطبيق منهجه وشريعته وأهدافه. وحينئذ فعلينا أن ننظر إلى التكليف ماذا يقتضي، فالواجبات يجب تطبيقها، والمستحبات يستحب تطبيقها)[1].

حيث إن الارتباط بالرحمة الإلٰهية هي شرط العمل كي يتطور ويتم قبوله، والعمل شرط في نزول الرحمة وتوسع الفيض الإلٰهي:

(أما العمل وحده من دون رحمة تجعله مقبولاً مبروراً، فليس من المنجيات. وأما الرحمة بدون العمل فإنها لا تأتي، لأن العمل يجعل للإنسان درجة من درجات الاستحقاق للرحمة. فالرحمة بدون عمل توقّع للمستحيل)[2].

ومن هنا ترتبط قضية الإمام الحسين من واقعة وقعت في الماضي إلى قضية مستمرة في الحاضر ومنتظرة في المستقبل، فترتبط ثورة الإمام الحسين بثورة الإمام المهدي الذي يأخذ الثأر الأكبر[3].

فعنصر الحق دائم ببقاء المؤمنين به وعنصر الباطل مستمر ببقاء عناصر تدافع عنه، وبهذا يكون شعار «يا لثرات الحسين» مبدأ سارٍ في جميع العصور. فالأجيال من كلا المعسكرين يشعرون بالوحدة البنيوية فيما بينهم، فكأن المتأخرين كانوا

---

(١) المصدر نفسه: ص١٢.

(٢) المصدر نفسه: ص٩٦.

(٣) المصدر نفسه: ص١١.

حاضرين مع المتقدمين، وكأن المتقدمين يتكررون بصورة المتأخرين[1]:

(وكان المستقبل لذكر آل البيت مرهوناً، والعظمة لرجاله موقوفة، والحياة لآثارهم ناصعة، والعلو لأعتابهم يزداد، والولاء لهم وحدهم يتعمق.

واحتل قبر الحسين الشهيد كعلم لا يدرس أثره في الضمائر قبل الأرض، ولم يزده مرور الأيام إلا رسوخ رسمه، وما زادته اجتهادات أئمة الكفر وإشياع إلا بروزاً وثباتاً، فازداد أثره علواً)[2].

ليست كربلاء استغراقاً في التاريخ، وإنما مخزون معرفي وروحي لخوض مسؤولية المستقبل. فالحسين هو نموذج القوة من خلال الإيمان وليس من خلال الجسد، أي من خلال المبدأ الثوري والمعنى الخلاق، وليس المادة الجامدة والمحدودة. الحسين هو النموذج الأسمى لطريق إنسانية الشهادة المقاومة لشهوانية المُلك.



(١) المصدر نفسه: ص١٠٨.

(٢) الحسين في الفكر المسيحي: ص١٨٦.

الفصل الرابع

كربلاء في وعي شريعتي

مهدوية التاريخ والفلسفة الشهيدة

عنفوان الرمز:

لطبيعة مرجعية علي شريعتي المعرفية المتمثلة بمناهج علم الاجتماع الديني، فإنه يقترب من الدين باعتباره عنصر ملموس ومحسوس في تفاعلات البنية الاجتماعية وفي سلوكيات الفرد الإنسان وطريقة تطويعه للظروف المحيطة. وعلى وفق هذا المنهج أعاد الدكتور علي شريعتي قراءة قضية الإمام الحسين، من هذه الزاوية بالذات، زاوية البحث عن سبل الطاقة البديلة في إعادة صنع الإنسان الثوري ضد نوعية الإنسان المُدجن. وهو ما أخذ يتبناه بعض الباحثين ولو بملاحظات متفرقة من دون أن ترقى إلى مرتبة المنهج الذي وصل إليه الدكتور الشهيد:

«الآن نقدم صورة من المسلم الكامل في شخص الحسين عليه السلام الذي جاء راموزاً صادقاً عن النبي صلى الله عليه وآله فيه من معناه وفيه من طبيعته، وبالثانية فوّز على النظراء وظل نسيج وحده. إذ

تم له أن يكون من رسول الله، كما يكون رسول الله من نفسه. فكان ينبعث من حدود الدين وحدود الطبيعة التي تشعر بالدين ومعناه شعورياً ذاتياً كأنه شيء منها، أو بعضٌ من عناصرها، ولقد اكتست هذه الطبيعة النيرة بهالة جعلت لصاحبها لوناً ينفرد، وشكلاً لا يشبهه إلا هو، ولا يجيء إلا فيه، كضوء الشمس لا يأتي إلا من الشمس مهما تشكل به الضوء وتصنّع عليه)[١].

وقوة إعادة القراءة وطريقة التلقي لثورة عاشوراء، لم تكن لتتم لو لم تكن الثورة بالأساس ذات إنسيابية وفيرة العطاء وعميقة السماء على مستوى شخص القائد أو على مستوى نتائج الثورة ذاتها:

(ونحن إذا قدمنا حسيناً بين العظماء، فإنا لا نقدم فيه عظيماً فحسب، وإنما نقدم فيه عظيماً دونه كل عظيم، وشخصية أسمى من كل شخصية، ورجلاً فوق الرجال مجتمعين.

ولا بدع فكل من عرفهم التاريخ وعرفناهم، قضوا دون غاية من أمجاد الأرض، فكان من قضى دون مجد من أمجاد السماء أسمى. والآن سأخوض في بيان نواحي العظمة التي امتاز بها الحسين عليه السلام في كل ميدان، حتى يبدو أمة بين العظماء. فقد عرفنا العظيم في ثوب الشجاع، وعرفنا العظيم في ثوب البطل، وعرفنا العظيم في ثوب الضحية الشهيد، وعرفنا العظيم في ثوب الزاهد، وعرفنا العظيم في ثوب العالم. وأما العظمة في كل ثوب،

---

(١) عبدالله العلايلي: «سمو المعنى في سمو الذات»، ص٨١.

والعظمة في كل مظهر، حتى كأنها تآزَحت من أقطارها فكانت شخصاً ماثلاً للناس يقرؤونه، ويعتبرون به، فهذا ما نجده في الحسين عليه السلام وحده، وهذا ما نلمسه فيه فقط، حيث هو من نفسه وحيث هو من نسبه. فلقد يكون أبوه ولكن لا يجد له أباً كمثل نفسه. فرجلٌ كيفما سموت به من أي جهاته انتهى بك إلى عظيم، فهو ملتقى عظمات ومجمع أفذاذ. فإن من ينبثق من عظمة النبوة (محمد) وعظمة الرجولة (علي)، وعظمة الفضيلة (فاطمة)، يكون أمثولة عظمة الإنسان، وآية الآيات البينات. فلم تكن ذكراه ذكرى رجل بل ذكرى الإنسانية الخالدة)[1].

لقد كانت معركة الإمام الحسين هي معركة ارجاع الحق كميزان للأمة كقضية اجتماعية، وكميزان للحُكم كقضية سياسية. فالإمام الحسين لم يدعو الناس لنصرته باعتبار شخصه أو باعتبار نسبه، وإنما كان يدعو الآخرين أن يتأملوا الحق مع من ثم ينصروه، فكلمة الإمام الحسين كانت (من قبلني بقبول الحق). وكان علي بن الحسين يتجدد عزمه ويقظته لا لنصرة الثورة باعتبارها نصراً لأبيه وإنما لكونها نصرة للحق حيث قال لأبيه بعدما استيقظ الحسين من رؤية رأها: (أو لسنا على الحق؟). فثورة الإمام الحسين هي ثورة من أجل دولة القانون والعدل وليس الطبقية واحتكار الثروات وتحويل الأملاك العامة إلى غنائم. فكانت ثورة الطف ثورة الرمز وثورة الخلود فكانت مختلفة عن أية حركة أخرى عرفها التاريخ:

---

(١) المصدر نفسه: ص٩٠.

(من الصعب أن نجد في تاريخ البشرية كله، يوماً كذلك اليوم الفريد والمجيد، وأبطالاً، كأولئك الأبطال الشاهقين والباهرين!!. إذ لم يكن الأمر في ذلك اليوم، أمر شهداء برزوا لمناياهم في استبسال وغبطة. ولا أمر جيش خرج لجيش مثله، فأبلى فأحسن البلاء. إنما الأمر الذي شعل الدنيا في يوم كربلاء، هو أنه اليوم الذي تجلت فيه قداسة الحق، وشرف التضحية على نحو متميز وفريد (..) فالقضية الجليلة التي دار من أجلها الصراع. والقلة الصامدة الماجدة التي وهبت حياتها لتلك القضية. والطريقة التي دار بها القتل بين أربعة آلاف فارس من جيش ابن زياد، واثنين وسبعين لا غير، هم أنصار الإمام الحسين. والأحداث المروعة التي سبقت ذلك اليوم. والحصاد الأليم، والعظيم الذي خلفه بعد أن مالت شمسه للغروب. كل ذلك يجعل من يوم كربلاء يوماً فريداً في تاريخ الآلام والبطولات في تاريخ التضحية والمجد. في تاريخ المأساة والعظمة. وفي تاريخ الحق الذي شهد في ذلك اليوم ـ ورغم هزيمة أبطاله ـ سيادةً وانتصاراً قرت بها عيناه!!.

إن أعظم ما صنع الحسين وأهله وصحبه في ذلك اليوم هو أنهم جعلوا الحق قيمة ذاته، ومثوبة نفسه، فلم يعد النصر «مزية» له، ولم تعد الهزيمة «ازدراء» به)[1].

---

(١) خالد محمد خالد: «أبناء الرسول في كربلاء» ص٧ ـ ٨. دار المقطم للنشر والتوزيع ـ القاهرة ٢٠٠٤.

الحرية كمنهج:

أما محورية الحرية في القضية الحسينية، فإننا نستطيع أن نلاحظ أن قوة الحرية هنا ليست نهجاً في الحياة فقط وإنما في الموت أيضاً، ولهذا كان مسلم بن عقيل يرتجز أمام جيوش ابن زياد في الكوفة بصرخة: (أقسمت أن لا أُقتل إلا حياً)، وبقي مسلم بن عقيل يتحدى عيون السياف بشجاعة نادرة حتى قال ابن زياد (وفخراً عند الموت؟!). كما تدلنا ليلة العاشر من محرم على ذات المعالم التربوية للذات الحرة، حينما خيّر الإمام الحسين أصحابه أن يذهبوا ويتركوه وحده، فإن القوم لايريدون غيره في حقيقة الأمر فهو الغاية القصوى لقوى الظلم والاستبداد والارتزاق القذر، إلا أنهم صمموا أن يبقوا معه ويفتدوه بأنفسهم. وهذا ليس موقف أبتر، أو سلوك قائد محاصر تيقن من الهزيمة العسكرية، وإنما هو موقف الهمة الواعية واليقظة الموصولة. فقد سبق للإمام الحسين إن خيّر آل عقيل أن يتفرقوا عنه حينما جاءه خبر مقتل مسلم. وكرر الأمر حينما وصل إلى منطقة حاجر، وتم قتل قيس وعبدالله بن يقطر، رسل الإمام إلى مجتمع الكوفة وقادته الحركيين، فأعاد الإمام الحسين بيانه لمن معه أن يمضوا معه إلى خيار الموت في سبيل الحرية أو الانفصال عنه، وهنا تفرق الناس عنه فلم يبق معه سوى الثلة التي باعت نفسها لله وللحق واشترت الحرية والارتباط بالمثل الأعلى.

فالإمام الحسين خيّر الناس بالموت معه أو الذهاب إلى السلامة، والناس من حوله ألوف مُؤلفة، وليس فقط ليلة العاشر

من محرم. وهذا ما يستدعي التأمل والخشوع أمام نصب الحرية الأبدي هذا. فالإمام الحسين حينما كان تضج الألوف من حوله فرقهم بخيار الشهادة، وحينما بقي وحيداً استدعاهم وطلب الناصر ولو فرداً واحداً، كي يلتحق بالأفتح الأكبر فتحى المعنى في محراب المسؤولية. وقد بقي الإمام الحسين يردد نشيد الإباء:

سأمضي وما بالموت عار على الفتى
إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلما
وواسى رجالاً صالحين بنفسه
وخالف مثبوراً وفارق مجرما
فإن عشتُ لم أندم وإن مت لم أُلم
كفى بك ذلاً أن تعيش وترغما

وماذا عسى الأقلام أن تسطر وأنى للبلاغة أن تقرب أو تصف، لأبطال كان قلوباً ثابتة بوجة عشرات الألوف، فيهم الشباب والشيخ الضعيف والطفل الصغير بل والرضيع أيضاً، والمرأة المسنة، بأجمعهم افتدوا رمز العقيدة الصالحة ونموذج القيم الروحية العليا، الإمام الحسين، وهو يشاهدهم يتساقطون دونه كالفراشات تعانق النور، فأي قلبٍ هو هذا الذي تحمل كل تلكم الآلام، وأي روح كبيرة هذه التي بقيت حتى الرمق الأخير من الجراح والعطش وقتل الأصحاب والأخوة والأطفال والنساء، يوعظ العدو وينصحه؟!

لقد التقى الطهر الخالص مع رجس البشرية الأكبر، فالحسين قال (ومثلي لا يبايع مثله) فليست القضية قضية شخصية

بين الحسين ويزيد، وإنما القضية كل القضية هي بين خطين متناقضين، بين فكرين وعقلين متباينين. يُسجن الرجس في نجاسة البدن، حيث إن الخط الأموي لا روح فيه، ويُخلد العنفوان والأبطال في قمم صقور السمو والرفعة والعزة والكرامة، فكانت عاشوراء درس الإنسانية الأعظم ورسالة السماء الكبرى، حيث بدأ الإسلام محمدياً واستمر حسينياً. كان محمد سيد الأنبياء والحسين سيد الشهداء.

العجب كل العجب أن الحسين وأنصاره على الرغم من قلة العدد، والحصار الوحشي، لم يفرّ ولم يهرب، وبقي صامداً هو وأصحابه حتى اللحظة الأخيرة، بينما كان مصير الكلاب المسعورة التي قتلته أنهم تم هلاكهم فارين هاربين جبناء. لقد بقي للحسين العزة رغم القتل البشع، ولإعدائه الهوان والذل، رغم الكثرة والتمكن من المال والسلطة. وهكذا تحقق الفرق الكبير بين الجيفة والشهادة. بل يزيد نفسه لم يتم قتله أو القصاص منه، بل بقي مهملاً متروكاً، كي يكون أقل منزلة حتى من القصاص فيكون قد تم مقابلته مع الإمام الحسين ولو باسم العقاب!. الأمر الذي يؤكد بأن ثور الإمام الحسين كانت أبعد بكثير من إطاحة حكم يزيد. فحكم هذا الزنيم حكم زمني مؤقت، وثورة الحسين دائمة باقية مستمرة. لقد تحول فرح النصر المادي للظالمين إلى مأتم مرعب لهم، وانقلب مأتم تقطيع الأجساد الطهارة لأبطال العقيدة الخالدة، إلى عرس أبدي للسماء. وانبهار التاريخ.

وعلى أساس هذه القواعد الكبرى رفعت السيدة الجليلة

زينب الكبرى ذلك اللواء بوجه عبيدالله بن زياد، فقالت في تحديد واقعة كربلاء: (ما رأيتُ إلا جميلاً). أي جمال أكبر من جمال الشهادة، بحيث باتت الحرية مجرد لفظ والحسين هو المعنى. فإذا بكربلاء مهرجان للتضحية وعيداً للعدالة والحق، وصوت يحمل التاريخ ويركع التاريخ أن يحمله. فالحسين مشعل الأبد ونبراس قيم الروح والفداء والعهد.

التابين الحسيني تنظيم جماهيري:

ومن قوة هذه الروح الثورية أن مجلس التأبين الحسيني عبارة عن تنظيم جبارة للجماهير يجعلهم صفوفاً مصطفة بحماس، بشكل إرادي وحرّ، يعجز أي كادر سلطوي أن يصف الناس ويجمعهم بهذه الكثرة وبهذا الزمن البسيط، فكان المنبر الحسيني وسيلة إعلام متميزة في سرعة التأثير وانتشار الكلمة الحرة[1].

فالحسين بات يعني الناس، وصوت الحسين يعني صوت الجماهير. فالجماهير حينما تهتف باسم الحسين فإنما تهتف لروح الجماعة، وروح الجماعة حينما تتكاتف على فعل الخير وصنع الحرية، فإن روح الحسين تتحقق. فعاشوراء قضية كل جيل وكل عصر وليست حادثة وقعت في تاريخ الماضي، فعاشوراء معنى تحقيق الإنسان لإنسانيته ورفض كل أنواع التلوث:

(إن لكل إنسان كربلاء، ولكل جماعة كربلاؤها بالمعنى

---

(١) الإمام الخميني: «نهضة عاشوراء» ص١٤ ـ ١٥. دار الوسيلة ١٩٩٦.

الإنساني الذي ذكرناه، المعنى الذي يضع الإنسان أمام خيارين، خيار أن يرتفع وأن يضحي. وخيار أن يخون وأن يظلم. كل واحد منا، عامة ونخبة، كل واحد منا يواجه يومياً في علاقته مع مواطنيه)[1].

لقد علم الحسين الناس معنى النصر ومعنى المقاومة وأن علاقة لهما بقلة العدد، فالنصر يصاحب الكفاءة النوعية وليست الكثرة العددية، وهذه مسألة مهمة اليوم بالنسبة للشعوب المُستضعفة في معركتها ضد الدول الكبرى وقوى الشر العالمي[2]. فالإمام الحسين عليه السلام أعطى درساً أبدياً خالداً بكون قضية إصلاح المجتمع تستحق أن يُضحى بالفرد لأجلها مهما كانت مكانة هذا الفرد وقدسيته وموهبته، وهذا هو خط الأنبياء، خط الإصلاح:

(لقد بُعث لإصلاح المجتمع، وكلهم كانوا يؤكدون أنه ينبغي التضحية بالفرد من أجل المجتمع مهما كان الفرد عظيماً، وحتى لو كان الفرد أعظم من في الأرض. فإذا اقتضت مصلحة المجتمع التضحية بهذا الفرد، فعليه أن يضحي. وعلى هذا الأساس نهض سيد الشهداء عليه السلام وضحى بنفسه وأصحابه وأنصاره. فالفرد يُفدى في سبيل المجتمع، فإذا اقتضت مصلحة المجتمع وتوقف إصلاح المجتمع على تضحيته وجب التضحية)[3].

---

(١) محمد مهدي شمس الدين: «عاشوراء» ج١ ص١٣٥. المؤسسة الدولية للدراسات والنشر ـ ١٩٨٨.

(٢) نهضة عاشوراء: ص٢٢.

(٣) المصدر نفسه: ص٤٦.

لقد اجتمع في معاوية ضغنان لإمام علي: ضغن عصبي منشأه جاهلي. وضغن ديني منشأه عدم الإيمان بالإسلام[1]. الأمر الذي يعني أن خط علي بن أبي طالب هو صراع ضد قيم الجاهلية بما يخص الفطرة الإنسانية، ومقاومة لوسائل التحريف الديني والثقافة المُزيفة. ومن هنا ارتكز الإمام الحسين على هذين البعدين بالذات فكان أنصاره على مستوى واحد من القرب والعطاء فوقف جون الحبشي بقرب السيد الهاشمي، واختلطت الدماء وامتزجت وكتبت رسالة الشهادة. قضية الإمام الحسين هي قضية وقوف الثقافة الرسالية ضد ثقافة التزوير. فالقضية الحسينية هي قضية الأنبياء بتكاملها ونضجها، فثورة الإمام الحسين هي تكليل لجهد الأنبياء وحركة النبوات وهذا هو محور قراء الشهيد علي شريعتي لواقعة كربلاء وقضيتها. وهذا هو معنى كون الإمام الحسين وارثاً لأدم، بحسب نص الزيارة الشهيرة باسم زيارة وارث:

(السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله، السلام عليك يا وارث نوحٍ نبي الله، السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله، السلام علَيك يا وارث موسى كليم الله، السلام عليك يا وارث عيسى روح الله، السلام عليك يا وارث محمدٍ حبيب الله.. الخ).

وهذا أمر دلل عليه الإمام الحسين نفسه، حينما عزم على الخروج من المدينة (وما أولهني إلى أسلافي، اشتياق يعقوب إلى يوسف)، وكان يقول لوالي المدينة ان من هوان الدنيا عند الله أن

---

(١) لبيب بيضون: «موسوعة كربلاء» ج١ص٣١٤. طبعة سليمان زاده ـ قم، إيران. الطبعة الأولى.

رأس يحيى بن زكريا كان يهدى إلى أحد البغايا، فدم الحسين استمرار لذلك الدم، والخط الأموي استمرار لتلك الباغية الداعرة. وبما أن تكامل المجتمع البشري اختياري وليس قهري كالأمر الطبيعية، كان الحسين جزء من استمرارية حركة الاصلاح التي يشكل الأنبياء مثلها الأعلى[١].

قواعد في طريقة التلقي:

وترتكز قراءة علي شريعتي لثورة الإمام الحسين على مجموعة من القواعد التنظيرية التي تمثل أساس القراءة والتلقي لدى شريعتي:

١ ـ التمييز بين المفاهيم التي تولّدها الثقافة الرسالية، وبين المفاهيم التي تحرسها ثقافة التزييف. والتي تنتجها قوى القصر، أي السلطة السياسية، والدكان أي السلطة الاقتصادية، والمعبد، أي السلطة الدينية. وهذا ما يسميه شريعتي بثالوث فرعون وقارون وبلعم بن باعورا. وهم الرموز الثلاث الذين يتم رميهم في رمي الجمرات في عرفات في مراسم الحج[٢].

أولئك هم الاستبداد والاستغلال والاستحمار. وهو الفرق بين إسلام أبو ذر، حيث الفقراء والجماهير، وإسلام عثمان بن

---

(١) صدر الدين القنبجي «الإمام الحسين وحركة الأنبياء الإصلاحية» ص١١، وهذا الكتاب يأخذ بعض أفكار شريعتي بدون الإشارة إلى ذلك.

(٢) علي شريعتي: «الحسين وارث آدم»، ص٢٠٨. ترجمة إبراهيم دسوقي شتا. دار الأمير ـ لبنان ٢٠٠٤.

عفان[1]. حيث التجار والأثرياء والاحتكاريين وأهل البلاط والطبقية هم الخط الثابت في قطع طريق الرسالات وتيارات الإصلاح:

(كان الأنبياء جميعاً، قبل موسى وبعده، يواجهونها ويثورون ضدها، إنها الوجوه الثلاثة الأولى التي وقفت ضد جميع الرسالات، وواجهت رسالة الحق في كل عصر: فرعون، قارون، بلعم بن باعورا. فرعون يمثل سلطان القوة الحاكمة على تاريخ البشر. وقارون يمثل السلطة الاقتصادية وقوة المال الحاكمة على البشر. وبلعم بن باعورا يمثل السلطة الدينية الحاكمة بين البشر. ومن خلاله كان الدين يتحول إلى أداة استغلال تعمل لصالح الثلاثة (..) ليس ثمة آلهة ثلاثة في الكون، ولكن ثمة أرباب ثلاثة في الأرض)[2].

فلكي نفهم ثورة الإمام الحسين وقضية كربلاء، لابد نحذر من الروايات والقراءات التي أنتجها خط ثالوث التزوير والتحريف، ونرابط بين الحلقات الفكرية والقواعد المنهجية والمواقف الإيمانية لخط الرسالة. فثورة الإمام الحسين مرتبطة بالأنبياء وليس بالأصنام. مرتبطة بالناس وليس بالسلطة.

فكما قام الثالوث بتحريف ديانة موسى وعيسى، كذلك فعل بديانة محمد. لقد تحول الثور، ثور المال هو الزعيم المُشرّع للديانة اليهودية، وباتت تجان الذهب هي التي ترسم درب

---

(١) المصدر نفسه: ص١١٣.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٧٨.

الخلاص المسيحي، وبات البلاط الأموي هو المُحدد لمعنى البدعة في الإسلام[1]. حيث تم التخلص من شرك الجسد للوقوع لثنوية الحياة: العبد والسيد:

(ثنوية الوجود كتبرير لثنوية الحياة، تقديس مراتب السيد والعبد، والمالك والمملوك، والحاكم والمحكوم، والروحاني والجسماني، والسعيد والشقي، ثنوية أبدية إلهية وعالمية. والآن إله واحد لكنه أحول. هذا هو شغل حواريي الرسول، ومفتيي الفقه ومفسري الكتاب، وحماة السنة، ورواة الحديث. كل حديث بدينار، بسعر خلافة ـ خليفة الله في الأرض ـ وأبو الدرداء كليم الأمة، وأبو هريرة جليس النبوة راوي أربعمائة ألف حديث، هما وارثا الهيئة الدينية طوال التاريخ في كل الأديان وكل العصور. والآن ثانية نفس التثليث الدائم والذي حدث في كل الأوقات: دين الآلهة الثلاثة: الأب والابن والروح القدس، الملأ والمترف والراهب، كسرى والدهقان والموبذ، الشركة المساهمة للقوة والذهب والاحتيال، السياسة والاقتصاد والدين. النظام الذي كان حاكماً على الإنسان من بداية التاريخ. مثلث الشؤم الذي دفن فيه كل الأنبياء الصادقين. طلسم «العبودية» و«النهب» و«الخداع». وعقال على ساق مطية التاريخ، مذبح الحرية والمساواة والوعي. مدفن الشعور والعشق والإيمان والأخوة بين أبناء آدم. مثلث «السيف والذهب والمسبحة». الأول يشد رؤوس الخلق بالأغلال، والثاني يخلي جيوبهم، والثالث يعظه هامساً في أذنه هادئاً بلهجة

---

(١) المصدر نفسه: ص٨٠.

فياضة بحب الخير والحكمة، وبشكل في تعاطف: اصبر يا أخي أخل باطنك من الطعام حتى ترى فيه نور المعرفة (..) اجعل جوعك رأس مال غفران ذنوبك!.

مثلث قاعدته «شبه الشيخ» وضلعاه «السيد» و«الخان الأقطاعي»)[1].

لا تعددية في العدل:

معنى ارتباط ثورة الإمام الحسين بحركة الأنبياء، إن دين الله هو دين واحد، فلا تعدد في العدل حيث إن التفاوت في العدل معناه النقص فيه فيخرج عن أن يكون عدلاً، والتفاوت في التوحيد يخرج التوحيد أن يكون توحيداً. وهذا هو الذي جعل القرآن الكريم يعبر عن الإسلام بكونه دين إبراهيم:

«يريد القرآن الكريم توضيح أن حركة محمد ﷺ، ليست حركة مجردة مبتورة، إنما هي استمرار لحركة واحدة في التاريخ والإنسانية، تجري في تيار الزمان وتتنقل من آن إلى آن، ويصور الجميع في وحدة تاريخية وحدة «دين» و«إسلام» و«رسالة» و«نبوة» و«منطلق» و«هدف»، وهي عبارة عن «حركة» رسالتها التاريخية «إنقاذ الناس» و«تكامل الإنسان». وبتعبير القرآن الكريم: تزويد البشرية بـ «الكتاب» و«الميزان» و«الحديد» و«تعليم الحكمة» ـ العلم والوعي والبحث عن الحقيقة ـ وتحقيق القسط ـ العدل والمساواة الطبقية والعنصرية مادياً ومعنوياً.

---

(١) المصدر نفسه: ص٨٤.

وهذه الرسالة تتوارثها الأجيال يداً بيد عبر التاريخ والعصور المتتالية، يتسلمها الأنبياء المبعثون للناس والناس المتطلعون إلى العدل، وهؤلاء هم الورثة المتعاقبون لهذا الميراث الإلهي العظيم. وفي مقابل هذه الحركة المتلاحقة والرسالة الواحدة تقف القوى المحادة لله، المحاربة للناس، هؤلاء الذين «يكتمون آيات الله ويقتلون الأنبياء ـ ومن يطالب بالعدل ـ بغير حق» ويصدون عن سبيل الله، ويجرون الناس إلى الاستعباد والذلة والاستضعاف، ويدعونهم إلى أنفسهم وطاعتهم وعبوديتهم وتعظيمهم والتملق لهم، بدلاً من الدعوة إلى عبادة الله وطاعته وحمده والثناء عليه، ويعتبرون أنفسهم أرباب الناس، ويطغون في الأرض ويتخذون عباد الله خولاً، يجبرون الناس على التسليم لهم وطاعتهم وعبادتهم وتقليدهم تقليداً أعمى تحت ستار «الروحانية» ويدعون إلى عبادة الرئيس وعبادة فرعون، وعبادة الروحاني «رجل الدين» إلى جانب دعوتهم إلى عبادة الله ـ هؤلاء الذين أطلق عليهم القرآن ثلاثة عناوين كلية: «الملأ» و«المترف» و«الراهب». وقفوا دائماً في وجه رسالات الله ومنعوا تحقق العدالة واليقظة والحرية وتكامل الإيمان والتوحيد الخالص الصادق.

الله يعطي الإنسان كرامة وفضلاً، ويجعل الناس عياله ومقربيه، ويريد لهم العزّة والحرية والنعمة والشرف والقوة والاقتدار. وهؤلاء يجعلون الناس عبيداً مستضعفين ومقلدين وجهلة مطيعين»[1].

---

(١) المصدر نفسه: ص١٢٧.

فرسالة التوحيد الاجتماعي، حيث الصالح العام والعدل، واحدة، وثقافة التزوير التي تطرح دين الله مقلوباً، تعتمد على مثلث مستمر الحلف على طوال مراحل التاريخ كصفة مناقضة للحق:

«ثلاثة منهم شركاء. شركاء في القول والفعل والسلوك، شركاء دائماً وأبداً، ورأسمالهم الصوف واللبن واللحم والسّمن والدم والجلود الحاصلة من القسم الرابع، لأنهم أغنام الله وأولئك الثلاثة ظله وأقرباؤه الذين يتمتعون بحق تمثيله»[1].

الخط التاريخي لتحريف العقائد:

لقد تم تحريف التوحيد بواسطة قوة الاجتهاد وأموال الزكاة وزهد الإمام[2]. وهي قوى تتخذ في كل عصر أسماء وعناوين مختلفة تتحدث باسم الله واسم الناس، وهي تعصي الله وتنهب الجماهير[3]. فواحد يحتكر السلطة باعتباره ممثل قوة الله، والآخر يحتكر الثروات، باعتباره الأمين على بيت مال الله، والثالث يحتكر الموعظة باعتباره الناطق بفتوى الشريعة[4].

وتزوير الدين باسم الدين لايختص بالديانة الزرادشتية حيث وثنية الظلمة والنور وتكديس الأموال لدى رجال المعبد، أوثنية

---

(١) المصدر نفسه: ص١٣٤.
(٢) المصدر نفسه: ص١٦٤.
(٣) المصدر نفسه: ص١٦٨.
(٤) المصدر نفسه: ص١٨٣.

التثليث حيث تتحول الكنيسة إلى خزائن للذهب ومعتقلات للتعذيب. ولايختص بالانحراف الذي حصل في الإسلام بشقه السني، وإنما يطال المذهب الشيعي أيضاً، فباسم الإمام يتم سرقة الناس وإبعادهم عن خط الإمامة. فهناك خط التشيع العلوي، وهناك خط التشيع الصفوي، وهناك خط الوعي بالمنبر الحسيني وهناك خط التكسب بالمنبر الحسيني، وهناك من يجعل زمن غيبة الإمام زمن لتوسع المسؤولية، وهناك من يستثمر زمن الغيبة للتسلط على الناس وسلبهم فكرياً ومالياً:

«إن الغيبة بالنسبة لجماعة أخرى فرصة عظيمة جداً. استغلت، اقصد استغلت استغلالاً إلى أبعد حدّ، فهنا جماعة ليس لديها أي نوع من الصلاحية لنيابة الإمام، يغتصبون بالقوة وبالحيلة والدسيسة مكان النواب الحقيقيين للإمام الغائب، ورغم افتقارهم للشروط التي ذكرها الغائب والتي ينبغي أن تتوفر في نائب الإمام الغائب، ويمسكون في أيديهم بزمام أفكار الناس وإيمانهم وشكل عقائدهم ومصائر حياتهم الاجتماعية ومسؤوليتهم، ويسقون الناس باسم الدين وباسم نيابتهم للإمام الحقيقية إلى أي مكان يريدونه هم وحلفاؤهم (أي الجماعتين الأخرتين: القوة والذهب)، ويختصون أنفسهم بالحقوق التي كان الإمام قد أعطاها للناس على أساس دين الله ورسوله وشريعة الإسلام والتشيع باسمه وباسم نيابته، أي أنه لما كان الإمام هو قائد دين الناس وحاكمهم الدنيوي فهو أحق بمال الحق منهم وأولى بأرواحهم منهم، فكرهم تحت سيطرته وحياتهم أيضاً وهم أيضاً ممثلوه، يجعلون الناس من الناحية

الروحية والفكرية عبيداً لهم. وأيضاً بالنيابة عنهم يستغلونهم من الناحية والفكرية عبيداً لهم. وأيضاً بالنيابة عنه يستغلونهم من الناحية المالية، ويجعلون الناس مكلفين بدفع أموال لهم»[1].

التوحيد من أسئلة الذهن إلى مشاكل الواقع:

٢ ـ التمييز بين التوحيد التجريدي والتوحيد الاجتماعي. فقضية الإمام الحسين قضية الحفاظ على مسألة التوحيد الحي، حيث يكون الله سبحانه جزء من مصلحة الناس ومن حركة إصلاح الأرض وعدالة توزيع الثروات والمسؤوليات. وليس الإمام الحسين قضية لاهوتية تجريدية محصورة بين رموز العرفانيين والمتصوفة. فقضية الإمام الحسين هي قضية الإمامة والقيادة، وليس قضية العزلة والتأمل النخبوي المغلق. ومن هنا كما فرق شريعتي بين إسلام السلطة وإسلام الناس. وثورة الإمام الحسين تقع في المعسكر الثاني ضد المعسكر الأول. يفرّق شريعتي هنا بين إسلام الحضارة وإسلام الأيديولوجيا.

فإسلام الحضارة متعلقه العلم والتأمل والمعرفة الباريدة والمحايدة، من قبيل ما صنعه ابن سينا مثلاً، وهذا منتوج يستطيع أن ينتجه أي طرف حتى لو لم يكن مسلماً، كما هو حال الاستشراق حيث قدم المستشرقون الكثير من الدراسات والتحقيقات في العلوم الإسلامية من غير أدنى حاجة للدخول في الإيمان في المعتقدات الدينية.

(١) المصدر نفسه: ص٣٤٧.

أما إسلام الأيديولوجيا فمتعلقه الثورة والتغيير، من قبيل ما قام به الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري. وإذا كان الإسلام الأول يقوم به العالِم، فإن الإسلام الثاني ينهض به المجاهد. وثورة الإمام الحسين ليست تصحيح فكري فقط، فقد كان ثمة علماء كثيرون في الأمة لكنهم ساكتون أو مرتشون، وإنما ثورة الإمام الحسين تصحيح سلوك وعمل، فالأمة بحاجة إلى التغيير العملي الملموس وليس الاكتفاء بتكديس الكتب وحفظ العلم من أجل العلم، بينما نحن بحاجة إلى علم العمل، تماماً كما كان يصر الصدر الثاني على ذلك سواء في كتابه «فقه الاخلاق، أو موسوعة الإمام المهدي أو كتابيه عن الإمام الحسين، فالعلم إذا لم يصحبه التطبيق، والمفهوم إذا لم يلازمه النهوض، كان حجاباً وتضييعاً للإنسان:

«فهناك إماماً زمان ثم إمامتان، وصنفان من مذهب الشيعة. وإسلامان: الأول، الإسلام كأيديولجية «أي المدرسة العقائدية». إيمان هدفي وهادي. أي الدين، وفي تمثل القضايا العقائدية والشعائر العملية والعبادية عاملاً للنضج الروحي عند الإنسان والعزة والنضج الأخلاقي والفكري والاجتماعي، وسلاحاً من أجل رقي حياة النوع الإنساني. وفيه أيضاً جانب عملي كما أنه مفيد لمرحلة ما بعد الموت. أما الثاني فهو عبارة عن مجموعة من العلوم والمعارف والمعلومات الكثيرة من قبيل الفلسفة والكلام والعرفان والأصول والفقه والسير، الإسلام كثقافة.

إسلام المجاهد وإسلام الشهيد:

والإسلام كأيديولوجية يبنيه أبو ذر، أما الإسلام كحضارة فيصنعه أبو علي بن سينا، والإسلام كأيديولوجية يصنعه المجاهد، والإسلام كثقافة يصنعه المجتهد، الإسلام كأيديولوجية يعني العقيدة ويصنعه المفكر، وثقافة يصنعه العالم، والعقيدة الإسلامية هي التي المسؤولية والوعي والهداية. أما العلوم الإسلامية ففرع خاص من العلوم يستطيع حتى المستشرق أن يحصلها، ويمكن لمعوج التفكير أو السيئ الفكر المغرض أن يتعلمها وأن يحصلها، ومن هنا فمن الممكن لإنسان لم يتعلم أن يفهم الإسلام بشكل أصح وأن يفكر ويعيش بشكل أكثر إسلامية، وأن يميز المسؤولية الإسلامية أكثر من فقيه أو عالم بالأصول أو فيلسوف أو عارف صوفي»[1].

هنالك منزلة من الإسلام يحققها «المجاهد» وهناك منزلة أعلى من الإسلام يحققها «الشهيد». ومنزلة الشهادة هي التي تربط الإسلام بالوحدة التاريخية للحقيقة الدينية، فيغدو الدين آدمي المبدأ، إبراهيمي النسب، محمدي الختام، حسيني الاستمرار، مهدويّ المستقبل:

«إن أول شروط الوصول إلى سر «الشهادة» هو إبراز معالم المدرسة التي اتخذت هذه الشهادة في ظلها معناها والتي في إطارها تتبلور لها قيمة خاصة. وهذه المدرسة هي التي يشكل

---

(١) الحسين وارث آدم: ص٣٣٨.

الحسين أحد معالمها. فالنضال التاريخي الذي يعتبر الحسين أحد حملة ألويته وكربلاء إحدى ساحاته، هذا النضال هو جزء من حركة التاريخ وحلقة في مسيرة نضالية تاريخية كانت في عصور مختلفة وعلى جهات متعددة وستبقى. ذلك أن الحسين صورة لحلقة متصلة في تلك السلسلة من التاريخ الإبراهيمي ويجب أن تُفهم تلك الصورة، بل وأن تكون، على هذا الأساس. وما من شك في أن طرح قضية الحسين معزولة عن ترابطها التاريخي، وبالتالي إعطاء معركة كربلاء صورة الحادثة العابرة، يؤدي إلى تجريدها من أسسها التاريخية ودوافعها الاجتماعية ومن ثم إفراغها من مضامينها الأساسية واستمراريتها المتجددة، لنجعل منها، وهذا ما حدث، مجرد واقعة مأساوية لا نملك أمامها إلاّ أن نبكي، كما نبكي اليوم. لنستنتج من كل ذلك أن فصل الحسين وقضيته عن الجذور التاريخية للمدرسة العقائدية التي أنبتتهما هو بمثابة بتر عضو في جسم حي، لدراسته أو الاحتفاظ به»[1].

ومن هذه النقطة بالذات يكمن تميز واختلاف شهادة «الحرّ» عن بقية شهداء الطف، اختلاف شهادة الإمام الحسين عن بقية أنواع الشهادة. فالحر انتقل من خيار لذة القيادة وسلامة المال إلى الارتقاء إلى حرية الاختيار. اما الإمام الحسين فقد بقي نموذج لشهيد لم يتكرر. فثمة خصوصية في شهادة الإمام الحسين تجعلها شهادة ذات خصوصية وحالة منفردة حتى عن شهادة كبيرة كشهادة حمزة عم النبي.

---

(١) علي شريعتي: «الشهادة» ص٤٧. دار الأمير ـ لبنان ٢٠٠٢.

الحسين النموذج المختلف لخط المقاومة:

تختلف الشهادات فيما بينها كاختلاف أنواع الطاقة والنور، واختلاف أنواع السلالم وطرق الإرتقاء والعروج:

«الشهداء عندنا على نوعين: نموذج أحدهما حمزة سيد الشهداء والنموذج الآخر الإمام الحسين. وحمزة يختلف عن الإمام اختلافاً كبيراً، حمزة بطل مجاهد تقدم للقتال من أجل النصر وإلحاق الهزيمة بالعدو، فغلب وقتل وصار شهيداً. وهذه شهادة فردية بمعنى أن اسم حمزة تصدّر لائحة الرجال الذين قدموا أرواحهم في سبيل العقيدة.

أما الإمام الحسين فنموذج آخر. إنه يتقدم ليحصد العدو بسيفه ويكسب الجولة وينتصر ثم لم يفلح. أو أنه تعرض لمحاولة اغتيال ثم قتل على يد «وحشي». كلا، ليس الأمر كذلك. قد كان بوسعه القعود في بيته والبقاء على قيد الحياة، ولكنه قام ثائراً وتقدم نحو الموت بكامل الوعي، واستقبل المنية استقبالاً واعياً، واختار الموت والتضحية في تلك اللحظة الحاسمة، وركب الأخطار بملء إرادته ليحضر في الميدان ويقف أمام المتفرجين ويشهده أهل الدنيا والتاريخ ويراه المعاصرون والآتون بعدهم فيتسع مدى تأثيره وصداه وانعكاساته وإشعاعاته ويعجل في تحقيق أهدافه من خلال الموت والتضحية بالروح.

فالإمام الحسين اذن يختار الشهادة كهدف ووسيلة، وسيلة لإثبات الأمر الذي يسرع نحو الأفول، يحاربه الجهاز الحاكم

ليلقي به على الهامش ومن ثم يمحقه، وسيلة لإحياء ما تسعى السلطة لإماتته. فيما كانت «الشهادة» تختار حمزة وسائر المجاهدين لإحياء الآخرين الذين قتلوا في سبيل الله. يعني أن حمزة وسائر المجاهدين الآخرين الذين قتلوا في سبيل الله. يعني أن حمزة وسائر المجاهدين جاؤوا من أجل «النصر» وإن احتملوا الموت أيضاً فإنهم أقدموا بنية «النصر» فإذا أصابهم الموت فمرحباً به. أما الهدف الأساس فهو الانتصار وإلحاق الهزيمة بالعدو. فيما كان هدف الإمام الحسين بذل النفس والتضحية بالروح من أجل المقدسات المهددة بالإبادة المتدرجة في غياهب الأفول. فالجهاد يختلف إذن عن الشهادة اختلافاً كاملاً، ويفترقان هنا عن بعضهما. ولهذا نلاحظ الإمام أمير المؤمنين يعبّر عنهما بكلمتين في موضعين ويبين لهما فلسفتين مختلفتين: «الجهاد عزّاً للإسلام». فالجهاد إذن عمل غير الشهادة وله فلسفته الخاصة. بديهي أن الجهاد قد يؤدي إلى الشهادة بيد أنها حمزوية وليست حسينية.

«والشهادة استظهاراً على المجاحدات» يعني أن هدف الشهادة استظهار المجاحدات. وهي دائماً غير الجهاد. لأن حكمها مستقل له موضوعه الخاص، وهدفه الخاص. ذلك «عز للإسلام» وهذا «استظهار للمجاحدات». هكذا أفهم:

أن ثمة حقيقة ما تكون شعاراً وعواطف جياشة مقدمة يتبعها الجميع وتتمركز حولها القوى في برهة زمنية معينة، وعلى مرّ الأيام وتقدم الزمان تحتويها المؤامرات لأنها تشكل خطراً لجماعة خاصة ولا تلتئم مع مصالحها كأقلية، فتحاك ضدها الدسائس

لتغيب عن الأذهان وتطرد تدريجياً عن صفحة الزمان، وتطرح بإزائها قضايا الساعة ثم تطرح مكانها مسائل أخرى ليغفل الناس عنها وتبتعد عن اهتمامهم، فينهمكون تدريجياً في قضايا أخرى ويعالجون مسائل فرعية وأموراً جزئية، وبمرور الزمن تضيع القضية الأصلية ويلفها النسيان. وحينئذٍ يهب الشهيد ليقدم نفسه قرباناً ويضحي بروحه وسط الميدان ليظهر ما يريدون له الخفاء، ويجلي ما يريدون تغييبه، ويستحضر القضية من خلال عمله الفدائي، ويعيد شعار المقاومة إلى الأوسط ويطرد الأفكار البديلة والقضايا المطروحة بإزاء القضية الأصلية، يبطل الخطة المرسومة لإبادة الحقيقة، ويعبّد الطريق للقضية الأصلية لترجع من جديد، وهذا هو الهدف»[1].

المجاهد موته مؤقت، موت مرتبط بمكان وزمان حيث ساحة المعركة وتاريخ الحرب. أما الشهيد فهو فداء مستمر حتى بدون تصادم الجيوش وتحشيد للصراع. الشهيد ماهية الرفض فهو قيمة بذاته وليس قيمة يتم تحديدها عند مواجهة الآخر العدو:

«فحمزة مجاهد قُتل في حومة الحرب، عند استعار أوارها، أما الحسين فهو شهيد حتى قبل أن يستشهد. استشهد في عقر داره قبل أن ينحر في كربلاء، منذ أن دعاه الوليد ـ حاكم المدينة ـ إلى البيعة ورفضها وقال: لا. كانت هذه الـ«لا» رفضاً ونفياً لشيء

---

(١) الحسين وراث آدم: ص٣٠١.

اختاره بإزائها الشهادة. فالحسين «شهيد» منذ تلك اللحظة. لأن لفظ «الشهيد» و«الشهادة» لا يطلق ـ بناءً على هذا المبنى ـ على القتيل وعملية القتل، وإنما الشهادة بناء على هذا الفهم شهادة على أمر ما ونهي ونفي ورفض لأمر ما»[1].

ثمة فرق كبير بين شهادة الموت ليس القضية الأساسية حيث يوجد احتمال النصر أو الخروج من المعركة حياً والعودة إلى الحياة الطبيعية أو تكرار التجربة. وهناك الشهادة التي تُبنى على الموت، على الفداء والتضحية بحيث تكون التضحية هي الخط الأساسي في عملية التغيير:

«فالشهيد والشهادة الحمزوية ـ إذن ـ عبارة عن قتل امرئ نوى قتل الأعداء وشمّر ساعده للقضاء عليهم: المجاهد. والشهادة الحسينية عبارة عن قتل امرئ ثار من أجل أن يُقتل. هنالك: الشهادة حادثة مؤلمة تعترض المسيرة وتقطع الاستمرار في الطريق. وهنا: الشهادة منزل في منتهى المسيرة ومقصد في نهاية الطريق. هناك: القتل تراجيدياً وحادثة مأساوية. وهنا: القتل فكرة، نظرية، طموح، مُثل. هنا: يُقتل المجاهد الذي خاض غمار الحرب من أجل قتل العدو. ولابد ـ حينئذٍ ـ من النوح والعزاء والحسرة وإقامة المآتم أما هنا: فلا أسف ولاحسرات، لأن الشهادة درجة عالية وقمة سامقة وغاية التكامل الإنساني الذي يوصل الفرد إلى المطلق عبر الموت الذي اختاره بنفسه. إنها

---

(١) المصدر نفسه: ص٣٠٨.

ليست حادثة مشؤومة تحكي تمكن العدو وغلبته، وإنما هي سلاح بيد الصديق يفلق هامة العدو»[1].

وعلي شريعتي يكرر في حقيقة الحال، ذات الأطروحة العرفانية التي حاول شريعتي الابتعاد عن نسقها، والتي تبناها محمد صادق الصدر أيضاً كما قرأنا، فهذا الابتهاج بالشهادة هو ذاته المقالة التي تقول إن عاشوراء يستوجب الفرح بالنسبة للنخبة ولمن يدركون مقامات القرب الإلٰهي، وهذه المقولة هي مقولة خاطئة كما سلف أن برهنا عليه.

حمزة بن عبد المطلب والحسين، فروقات الشهادتين:

ونستطيع أن نلاحظ الاختلاف بين شهادة حمزة وشهادة الحسين بمستويين:

المستوى الشخصي حيث تم التمثيل بجثمان حمزة بعد وفاته، بينما تم التمثيل بالحسين وهو لم يزل حياً. وحمزة استشهد من أجل بناء دولة العدل، فهو قُتل من أجل إقامة نظام الحرية. بينما استشهد الحسين من أجل هدم دولة الظلم وتفكيك نظام الاستبداد. لكن كلاً من حمزة والحسين تم قتلهما واستشهدا بيد قاتل واحد هو القاتل الأموي الأول متمثل بهند وأبو سفيان بالنسبة لحمزة بن عبدالمطلب. ويزيد ومعاوية بالنسبة للإمام الحسين. وبذلك يكون الإسلام قد قام على ثلاث لاءات: «لا»

---

(١) المصدر نفسه: ص٣١٠.

شهادة الإسلام التي أسسها النبي بعبارة «لا إله إلا الله»، وهي شهادة التفسير. و«لا» شهادة الإيمان التي دافع عنها الإمام علي حينما رفض أن تكون سنة الشيخين موازية لسنة النبي والقرآن. و«لا» شهادة الحكم حيث لا حاكم على الناس سوى العدل. وهكذا تتحقق أركان الإسلام: التوحيد والنبوة. والمعاد القائم بالعدل والمدافع عنه كقضية بواسطة الإمامة.

إسلام العوام ومسؤوليات النقد:

٣ ـ التمييز بين إسلام العوام وبين مسؤولية المثقف. فالإمام الحسين هو المثل الأعلى لتصريح بمسؤولية الوعي في التغيير، وعدم انسياق الوعي إلى منحدرات السائد والتقليد وموروثات الجهلة والبسطاء. فمسؤولية المثقف تستدعي استلهام الإمام الحسين في النهوض والمقاومة والتجديد، بينما ضغط العوام ينتهي إلى الاستحمار.

فالمثقف خائن إذا لم يكن صوت الحق ضد الظلم، وقوة النهوض بالتغيير ضد الكسل والعزلة:

«فإذا لم تكن في ساحة الحق والباطل، وإذا لم تكن شاهد عصرك وشهيداً على الحق والباطل في مجتمعك، فكن إذاً، إينما شئت، لا فرق بين أن تكون قائماً للصلاة حينذاك أو جالساً لشرب الخمر، فكلاهما سيان.

الشهادة «حضور في ساحة صراع الحق والباطل المستمرة في التاريخ» والتخلف!؟.

أولئك الذين تركوا الحسين من أجل أن يصبحوا عملاء يزيد، وسواء أولئك الذين زحفوا إلى زوايا العزلة بحثاً عن الجنان وتركوا الحسين وحيداً ونفوسهم مطمئنة وضمائرهم هادئة فراراً بأنفسهم خارج متاعب مصاولات الحق والباطل، مشتغلين بعبادة الله في أركان المحاريب وزوايا البيوت، وسواء أولئك الذين أخلدوا إلى الصمت خوفاً من الاستبداد والقوة.

وذلك لأن الحسين إينما حضر ـ وهو حاضر في كل قرن وكل عصر ـ فلا بد أن تكون معه، فإن لم تكن معه وفي دائرته فكن حيث تشاء، مؤمناً أو كافراً، مجرماً أو ورعاً»[١].

محنة المثقف الديني:

إن تحريف الإسلام وتزوير الوعي لا يكون فقط بسبب السلاطات الثلاث: السياسية (فرعون) والاقتصادية (قارون) والدينية (كعب الأحبار وأبو هريرة والحوزة المُزيفة) وإنما هنالك سبب آخر لا يقل خطوره وهو حاكمية العوام وسلطة الغوغاء.

فقدرة المال في كسب رجال دين مزورين، وتمركز ذهنية العوام على فكرة المصلحة الشخصية والتعلق بالمنافع، يجعل صوت المثقف الحر صوتاً محاصراً. وهذا ما كان يعاني منه علي شريعتي وعانى منه محمد صادق الصدر أيضاً. فحكومة العوام تتأثر بفعل الجهل وحب المنفعة، بالإشاعات والبهتان وتحريف

---

(١) المصدر نفسه: ص٢٤٧.

الكلام، وهي وسائل العمائم المأجورة. وهكذا تلتقي السلطات الثلاث في القضاء على المثقف المستقل وجعله شخصية مطرودة تعاني الحرمان وسوء السمعة. حيث تقتضي الخطة:

«أن يشوّهوا سمعته بين الناس ويلوثوه ويمسخوا وجهه عند العوام المتعصبين من خلال الكذب والتآمر والاتهام، والبهتان والتزوير وبث الإشاعات والتكفير والشتائم والسباب. لكي يخمدوا صوته ويبطلوا تأثير حديثه ويبقوا الجماهير دائماً سجينة في إقطاعات أولياء الدين الرسميين الخالدين أبداً ـ يعني إضراب بلعم ـ وعندها يبقى وحيداً فريداً فيصفو الجو للفراعنة ليخرجوه من المدينة وينفوه إلى الشام ثم من هناك إلى الربذة حيث يحتز رأسه ويقضى عليه ببساطة وهدوء»[١].

وأشد أنواع المثقفين محنة وحصاراً وعذاباً هو المثقف المتدين المسؤول. فالمثقف العلماني ورجل الدين كلاهما له حجم محدد من المتاعب والأعداء. بينما المثقف المتدين صاحب النقد الرسالي، يقع في محنة العداء من جميع الأطراف فهو عدو رجال الدين ورجالات الثقافة، هو عدو المؤسسة السياسية والمؤسسة الدينية والمؤسسة الثقافية وفوق ذاك هو شخص سمعته مشوّهة بين أوساط الناس والمجتمع، يقول علي شريعتي بحرقة وغصة حقيقة في البوح والشكوى من هذه المحنة التي تشبه إلى حد كبير محنة محمد باقر الصدر ومحمد صادق الصدر:

---

(١) المصدر نفسه: ص١٠٩.

«وأنا الذي لمست طوال عمري قول الإمام الصادق «كل شهر محرم وكل أرض كربلاء وكل يوم عاشوراء»، أحسستُ أن تلك السنة وذلك الشهر وذلك اليوم بالذات كان مصداقاً لقوله عليه السلام، أكثر من أي وقت مضى. وشعرت ـ أكثر من أي وقت ـ بالوحدة وبأني أصبحت ضحية الأيام. وأدركتُ ـ بحرقة وألم أكثر من أي وقت ـ كيف تكون الفضيلة رذيلة في آخر الزمان!. ويبدو أن كل عصر «آخر الزمان» و«آخر الزمان» دائماً وفي كل حين!. لا يضرنا شيء من هذا، فضربة العدو لا توجع، بل ترسّخ الإيمان وتينعه، وتروي الرجاء وتورقه وتعطي الحياة معنى وقوة. ولكن المأساة في خصومة الصديق. لأنها تبث اليأس وتزيد الضعف وتورث الوهن، وهي سيئة، سيئة.

وليس عبثاً أن يزأر علي في عرصات «أُحد» وهو يغمد سيفه في جموع الأعداء، وينزل عليهم كالصاعقة ليفرق جحافل المهاجمين، فيما نراه على منبر الكوفة يلطم وجهه بعنف تحت وطأة الألم والتوجع والعجز.

أحسستُ أني وصلتُ إلى طريق مسدود. طريق يسلبني قدرة البقاء على قيد الحياة، حيث انسد عليَّ طريق الوجود والبقاء بالرغم من انطلاقي في العمل والمواجهة والحياة الاجتماعية والعقيدة والطريق والسعي نحو تحقيق الأهداف.

وعلى العكس مما يتصوره المثقفون المتغربون البعيدون عن الواقع، فإن المثقف الواعي المتدين الذي يبحث عن آماله وطموحاته الإنسانية في إيمانه وعقائده ونصوص ثقافته الدينية

يعيش وسط المجتمع المتدين أكثر غربة ووحدة. لأن عرض الدين بشكل واعٍ يبعث على التحرك والتنوير، يغيظ قبل كل شيء، القوى الدينية الرسمية ويقحمها في مواجهة ضارية وحرب عصيبة قاسية. فالدين التقليدي المسكِّن ـ كما كان على طول خط التاريخ ـ قاعدة مشتركة للاستعمار الأجنبي، والاستغلال الطبقي، والاستبداد السياسي، والاستحمار الفكري والعقلي، يتحصن فيه هؤلاء الأقطاب الأربعة متى داهمهم خطر الدين الاجتهادي الثوري وهو يدعو إلى رصّ الصفوف وتوحيد الموقف ضد العدو المشترك بالرغم من الاختلافات والمفارقات الموجودة بين أتباعه. يتحول هؤلاء الأقطاب يداً واحدة لقمعه وإبادته بلا هوادة»[1].

ولكون العوام بسطاء التفكير قليلو المعلومات، فمن السهل تزوير كلام المثقف النقدي الحركي، وتصوير كلامه بصورة مشوهة[2]، خصوصاً وأنهم يتحركون وفق التقاليد الموروثة والمصالح المباشرة وليس وفق الحقيقة والبرهان والدليل.

المثقف ينطلق من الشك للوصول إلى اليقين العلمي للتمسك بالحقيقية الواقعية. أما العوام فيتوارثون اليقين ويتعصبون للتقليد خالطين بين الحقيقة ووهم الحقيقة:

(أما جماهيرنا الدينية، شأنهم شأن كل الجماهير الدينية، لا

---

(١) المصدر نفسه: ص١١٠.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٠٠.

يسمحون بمجرد الشك في عقائدهم وأحكامهم ومراسمهم الدينية. وذلك حتى يقوموا بتفسيرها وتعليلها والاستدلال عليها وإثباتها ورد انتقادات المخالفين والمفكرين ونظراتهم، إنهم يؤمنون بهذه العقيدة إيماناً يقينياً وحاسماً، ولا يحتملون منها الخلاف أو الخطأ»[1].

وهناك جملة من الناس لايعترفون بالمتخصص بالبحوث الاجتماعية الدينية مثلاً، وينصتون فقط للفقهاء والمختصين بالجانب التقليدي مِن كتب التراث[2].

وللأسف صوت التهريج اليوم هو الصوت العالي المسموع، لذا يسهل التلاعب بالعقائد ويسهل اختراق المذهب من قبل لصوص الأسماء والألقاب في محاولة لضرب التشيع من الداخل:

«نعم، في مثل هذه العاصفة، ومن بين هذه الألوان والطلسمات هؤلاء العوام الذين ربوا كالأنعام. هل لديهم القدرة على تمييز السحنة «الشبيهة بعلي» في زمانهم. وعلى أن يجدونه في خلوة صمته ويجلسونه على إيمانه وحياته، ويودعونه مصير معاشهم ومعادهم وعقولهم وأحاسيسهم وأنفسهم وأهليهم وحاضرهم وغدهم؟!.

في مثل هذا المجتمع وفي مثل هذا الجو فإن عوامل

---

(١) المصدر نفسه: ص٣٢٠.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٤١.

استغلال الناس والاستبداد بهم واستحمارهم غالباً ما تجعل أجنحة المارقين والناكثين والقاسطين تزاول الحكم على الأفكار المشلولة وأنواع الإيمان المتجمد الحاقد الذي لم تسطع عليه الشمس، وفي أمثال «السقيفة» الخفية والعلنية يعدون إجماع القبائل وأفواج الصحابة الكبار وأنصارهم حول «الشيخ» و«الشيخين» أو «الشيوخ» التابعين لهم، وبعدها يأخذون البيعة في المساجد من «العوام كالأنعام». أما الملامح البسيطة المخلصة من نوع «علي» إن كانت موجودة، فإن الذي حدث يحدث مرة ثانية هنا أيضاً. أي تغوص في المحاق. وببساطة تُنحّى جانباً. أو على الأقل يكون صاحبها «واحداً» إلى جوار الآخرين[1].

ينتهي المثقف الواعي المتدين المستقل، منبوذاً من الجميع، تكون له رابطة حزن خاصة بكربلاء. يستشعر أكثر من أي شخص آخر غربة الإمام الحسين ووحدته وسط الأعداء. فالمثقف يتكأكأ ضده الصديق قبل العدو، والقريب قبل البعيد. نسمع صوت علي شريعتي هنا حزيناً منكسراً، صوت الوعي حينما يشتكي، صوت الكتاب حينما يتم هجره:

(وأنا حزين أقيم العزاء وأبكي نفسي. وفي قلبي عاشوراء لمجزرة الآمال، وأنا كربلاء مصيري المظلوم، وأشهد أسر بقاياي وكل ما تخلف مني. أي مصير أليم هذا؟!. كنتُ متهماً لدى الجميع. متهماً بالتدين في وسط المثقفين (العلمانيين). ومتهماً

---

(١) المصدر نفسه: ص٣٥١.

بالعلمانية (اللاتدين) في وسط المتدينين، ومن وراء هؤلاء فأنا أيضاً: «خارجي تمرّد على بيعة أمير المؤمنين»!. فرأيت نفسي عازفاً أصم، أو رساماً أعمى، أو عدّاءً مشلولاً (..) أولئك يمتلكون المذياع، والتلفزيون والصحيفة ومنصة التدريس والحزب، وغيرها (..) وأنا الذي أردت أن أكون مؤذناً وداعياً لديني، ولا أضحي بالحقيقة من أجل المصلحة أبداً، ولا أستسلم للنظام الحاكم على «الصحراء»، ولا أشارك الجميع في معزوفتهم وأعزف على منوالهم معزوفة الزمن الرتيبة المتكررة. دائماً شعرتُ بأني ديك يصيح في غير وقته المعتاد)[1].

وللأسف الشديد أن تشيع في أوساط الشيعة صراعات ومنافسات تبلغ حد التسقيط، وتتحول عناوين المرجعية والتقليد، والاختلاف بالرأي، إلى حرب داخلية تُستخدم فيها الحسينيات والمساجد المقدسة، والتي هي أماكن لوحدة المسلمين وأحباء أهل البيت وأتباعهم، إلى أماكن عائلية وحزبية تشيع الفرقة بين الناس، فيسخر قومٌ من قوم، فتضعف العزائم ويفرح العدو، حيث الأجساد مجتمعة والقلوب متفرقة:

(أخذتني الرعدة وارتعشت فرائصي وانتابتني رجفة جعلتني أهتز كشجرة الصفصاف خوفاً على إيماني، حينما بلغني أن أحد أصدقائي الذين ترعرعت وكبرت في حبّه يجهد نفسه ويحاول محاولات ساقطة تهدف إلى تشويه سمعتي وتلطيخ صورتي ـ لا

---

(١) المصدر نفسه: ص١٠٦ ـ ١٠٧.

أن يقتلني ـ بل يشوه سمعتي من أجل «المصلحة». استولى عليّ الخوف، وتوجهت إلى الله بكل ما أوتيت من قوة ورجاء داعياً ملتمساً أن يحفظني الله!!. ليس إلا)[1].

يجب أن نعيد الوعي بالشعائر الحسينية كي تكون مصدر طاقة في مواجهة عنف الإرهاب والإبادة الجماعية للمذهب، يجب أن يعي المنصتون لمجلس الإمام الحسين، أن الحسين بكى على أعدائه فكيف نتعلم نحن الحقد على بعضنا البعض، وتصيبنا أمراض القلوب من العصبية والتحزب، والغضب وقلة الصبر في الإنصاب للرأي المختلف؟!

ثورة المبدء ضد قناع السلطة:

إن نهضة الإمام الحسين هي ثورة الدم ضد تزييف التاريخ. فالنسق الذي حارب الإمام الحسين هو الانحراف التاريخي الذي بدأ يوم السقيفة. حيث غلبت العصبية والقوة والعشائرية والطبقية، قوة الحق وصوت الجماهير ووصية السماء. فتحول القتلة إلى مبشرين بالجنة، ومغتصبوا السلطة ولات الأمر يُنادى عليهم بأمير المؤمنين، ويتحول التجار والمتلاعبون بالمال العام أدوات قمعية رسمية لدولة تم بنائها بأجساد القراء والصالحين. فتمت تصفية خط التضحية لصالح خط الطبقية. فكانت ليلة العاشر من محرم ليلة الاصتدام بين إسلام العوام ونسق المحافظة على الجهل والتقليد في ظل حماية القصر والدكان والمعبد، فالتقى أهل عشق

---

(١) المصدر نفسه: ص١١٥.

الشهادة مع عصابة شورى الأموال ونهب الثروات، هاهم فرعون وقارون وسحرة المعبد يقفون بوجه موسى مرةً أخرى:

«كان الجو معتماً مظلماً، والليل أسوداً حالكاً، والأفق مقطباً عابساً منكمشاً والأرض سامدة من شدة الهول، والظلمات مطبقة تملأ الأرجاء. وإذا كان ثمة وميض فهو كبريق عيون الذئاب، وإذا كان ثمة صوت فهو عواء ثعالب. والمؤامرات حامية الوطيس في الأسواق والمحافل، تحيك الدسائس، وتكتيل الإتهام وتذيع الأكاذيب. والمتفرعنون مسيطرون. والقارونيون والبلعميون والسحرة، ألقوا بحبال العبودية المطلية بزئبق الخداع. والعدو المتيقظ المثابر، والعوام الذين أثارهم الجهل (الغوغاء) والخواص المتاجرون بالعلم والحقيقة. احتوشته أعداؤه تأميناً لمصالحهم، وأصدقاؤه رعاية للمصلحة.

لساني مقطوع، قلمي مكسور، شفتاي مطبقتان. يداي مكبلتان، أقدامي دايمة، طريقي مسدود، وحملي ثقيل، والعدو يحاصرني من كل مكان ويتخذني غرضاً للنبال، والأصدقاء، آه من الأصدقاء.

انسحاب مفاجئ ورجوع إلى القهقرى. ولعل المصلحة تقتضي النفاق والعزف على أنواط الجماعية. أو الزحف إلى الصف الآخر. أو اللجوء إلى أحضان التقية والسبات في مكمن أمين ترقباً لأحداث الغد. أو الدخول في نجوى السياسة: إن المصلحة تقتضي ـ الآن ـ أن نخرجه نحن من الميدان ونقذف به خارجاً ونضغط بأيدينا على حلقومه لخمد صوته، ونطفئ صرخته،

ونضع السكين على رقبته، ونطرحه أرضاً أمام أعين «أولئك» الذين أرادوا أن يسقوه كأس الشهادة ـ وهم على كل حال مؤثرون ولهم دورهم مهما كانوا ـ ونذبحه ذبحاً شرعياً تحت أقدامهم، ونرمي بجثمانه بين يدي الجمع. لكي تثبت براءتنا ويرضي «أولئك» ونتنصّل عن المسؤولية ولانقع في الورطة، ويرضى عنا شيوخ القوم ورؤساء القبائل وسادات قريش ورؤوس النفاق وأهل الحل والعقد، فنطمئن إلى متابعة أعمالنا براحة وإتقان ونقنع الجميع ونكسب رضاهم. ومن ثم نعقد الشورى بالاشتراك مع جميع المبشرين بالجنة ـ شورى من خمسة أشخاص طبعاً ـ ونقيم السقيفة المُشكّلة من الأشراف والأصحاب وأهل الحل والعقد وتحكمها الضوابط الدقيقة بحيث لا يصل إليها بحال خارجي عن المذهب، أو «رافضي» للسنة، وتكتمل الأعمال في إطار البيعة وإجماع أهل الحل والعقد وموافقة التراث السنن والتقاليد القديمة الموروثة وطريقة السلف والمشايخ»[1].

لقد كان الوضع يحتاج إلى صرخة الدم وليس انتقاداً بارداً. لولا صرخة الدم الحسيني تلك، لترسخ النظام الاستبدادي في وعي الأمة بكونه نظاماً شرعياً وأنه جزء من تعاليم الإسلام، بدليل أنه لم ينتقده أحد. لكن صرخة الدم قوضت هذا الوهم وبات الدم الحسيني صرحاً يدل الأجيال على معنى الإسلام الحقيقي:

«وها هو الحسين يرى أن القصة لم تعد قصة فساد معاوية

(١) المصدر نفسه: ص ١١٣.

ولا قصة عثمان حين صار آلة بيد أقربائه. القصة ليست اغتصاب عمر وأبي بكر للخلافة. ليست القصة قصة فرد. ليست القضية شخصية، لا ، وليست قضية شكلية. بل حتى ليست قضية انقلاب النظام الإسلامي رأساً على عقب انقلاباً رسمياً شرعياً قانونياً.

الخطر محدق ولو لم يتعرى الأمر ويدان، لو لم تفضح الفعلة الشنعاء وتُستنكر، لأصبح رداء النبي وشعار الإسلام، بل حتى القرآن. رموزاً لتغطية النظام الجديد. ولستمر الأمر كذلك. كما استمر من قبل، فيحكم نظام الجاهلية باسم الإسلام ويترسخ الأمر كذلك إلى ما شاء الله وينبسط الغطاء الشرعي بما لا يمكن فضحه فيما بعد، تلك إذن الطامة الكبرى ولهذا نقول إن القضية أصبحت قضية أخرى تقتضي موقفاً آخر»[1].

التوحيد الاجتماعي ضد شِرك التاريخ:

إن قضية الإمام الحسين، أعمق من أن تكون مواجهة إمام عادل لأمير فاسد، أو استرجاع حق شخصي في الحكُم. قضية الإمام الحسين هي إعادة رفع راية التوحيد كحقيقة عملية في الواقع والمجتمع، في مواجهة سلطات التزوير وقمع الإنسان على مر التاريخ:

«ولهذا فإننا لا نرى في كربلاء معركة بين الحسين ويزيد. لأن الحسين لم يثر ضد يزيد لأنه شخصياً عضو فاسد وإنسان

---

(١) المصدر نفسه: ص٢٧٣.

ساقط. لم ينهض الحسين من أجل حقه أخذ حقه الشخصي الذي اغتصبه يزيد. لم ينهض من أجل حقه أو حق الحسن وعلي الذي اغتصب، لم يثُر الحسن لهذا ولا لغيره، إنما ثار الحسين من أجل أن يرفع الراية التي حملها رواد التوحيد منذ انطلاقة التاريخ البشري، وتوارثها أنبياء الحق العِظام منذ آدم حتى وصلت بيد نبي الإسلام آخر الأنبياء، ومن ثم بيد الإمام علي والحسن، ثار ليرفع هذا اللواء عالياً خفاقاً في تاريخ الإنسان. رفع الحسين اللواء الذي كان يرفرف دائماً ليكون مناراً لمواجهة النظام الحاكم ذي الأبعاد الثلاثة والدين الواحد. ومواجهة الشرك عبر التاريخ (الشرك ملة واحدة وإن اختلفت الأسماء وهو عدو البشرية وإن كان باسم الله أو الآلهة وكان يعشعش دائماً وأبداً في المعبد والدكان والقصر، وهذه الثلاثة تجتمع دائماً في بيت واحد، بيت قابيل) وإدانة عدائه للناس عبر مراحل التاريخ ـ الذي رفعه من قبل النبي وسلّمه لعلي من أجل الاستمرار في الحركة ـ لا الوحي ـ ومن ثم سلّمه للحسن وبعده وصل بيد الحسين (. .).

ولهذا نؤكد عليكم أن لا تتعاملوا مع الحسين كظاهرة واجهت يزيد، ولا تدرسوه كحقيقة حاربت عبيد الله وعمر بن سعد، بل لا تحصروا الحسين في دائرة السنين الستين من تاريخ الإسلام ـ وكذلك الأمر في التعامل مع النبي والإمام علي ـ تعاملوا مع الحسين باعتباره وريث حركة العدل والحق في التاريخ، ولابد من انتقال هذا الميدان إلى من يأتي بعد الحسين وإلى الأنصار السائرين على خطى الحسين. وما ثورة الحسين إلا

معركة في الحرب التاريخية العظمى بين هذه القطبين والبعدين. لهذا صار الحسين وارثاً كما نقرأ ذلك في زيارة «وارث» العظيمة التي تعتبر الوراثة أعظم صفة وأعظم فلسفة للتاريخ وتكاد تحصر فلسفة ثورة الحسين في «الوراثة». الحسين وارث. وارث آدم ووارث نوح. يعني أن اللواء الذي ارتفع منذ فجر التاريخ وانطلق بيرقاً للحقيقة عبر مراحل التاريخ قد وصلت الآن بيد الحسين. الحسين وارث إبراهيم، وارث موسى، وارث عيسى، وارث محمد ﷺ. فثورة الحسين ليست المعركة الأخيرة وليست النهاية لكل شيء. لأن الاضطهاد والعدوان نظام حاكم موجود بعد الحسين، ولابد أن يسلّم بيرق الحق والعدالة للورثة من بعد الحسين. ليؤدي كل منا دوره في التاريخ، حسب الظروف ومقتضيات الزمان ومتطلبات الموقف. وهذا هو معنى أن الحسين وارث الأنبياء ووارث أوصياء الأنبياء، وأنه سيسلم الراية لمن يعقبه في التاريخ، ولابد أن يبقى هذا البيرق خفاقاً في ميادين العمل الدائب حتى ينتهي إلى انتصار الإنسان في ثورته»[١].

إسلام القرآن وإسلام السقيفة:

في يوم العاشر من محرم وقف إسلام محمد والضعفاء، ضد إسلام أبو سفيان وعثمان بن عفان ومروان بن الحكم ومعاوية والمتسلطين. وقف إسلام القرآن ضد إسلام السقيفة. إسلام المؤاخات ضد إسلام الطبقية والتخصيصات والتمايزات. إسلام

---

(١) المصدر نفسه: ص٢٨٨.

الثورة ضد إسلام الخلافة[1]. حيث تحول الإسلام من التسليم لله سبحانه إلى التسليم والخضوع للخليفة، فها هو أمية بن خلف يعذب عمار بن ياسر، وها هو عثمان ينفي ويغتال أبا ذر. وهاهو معاوية يقتل حِجر بن عدي ويغتال الحسن بن علي، وهاهو هو يزيد بن أبي سفيان يتقل الحسين بن محمد. ها هو دين الاستسلام يذبح دين الإسلام[2].

ومنذ ذاك تم لبس الإسلام مقلوباً كما يلبس الفرو. فتم تغييب الأمور الجميلة والصالحة، والافتخار بالأمور القبيحة والمُضرة. فانتصر التقليد على الاجتهاد، والسلفية على التجديد، والاستبداد على الحرية، والاستعمار على المقاومة، وبدعة أهل الخلافة والتوريث على أهل البيت ومنزل الوحي[3]، انتصار إسلام المؤسسة على إسلام الجماهير. وانتصار التشيع الصفوي وتجارة المنابر والمتلاعبون بالخمس والمرجعية على التشيع العلوي ومقاصد حركة الحسين وعدالة توزيع الحقوق. انتصار الحسين كبكاء ونياحة على الحسين كشجاعة وفكر وقوة الوعي الثوري[4].

الوعي الحسيني هو وعي العلم والعمل، الوعي الذي يُغير الواقع ويطوره ولايكتفي بانتزاع مفاهيم كلية مجردة[5]. وكما تحول الحسين إلى تجديد في الفقه الأخلاقي لدى محمد صادق

(١) المصدر نفسه: ص١٤٧.
(٢) المصدر نفسه: ص١٩٠.
(٣) المصدر نفسه: ص٣١٤.
(٤) المصدر نفسه: ص١٢١.
(٥) علي شريعتي: «العودة إلى الذات» ص٣٢٦. دار الأمير - بيروت ٢٠٠.

الصدر، يتحول الحسين لدى علي شريعتي إلى عودة إلى الذات الثورية والخروج من كساح الوعي المشلول الدائر بين العزاء والعزاء، ورثاء الواقع بدل المشاركة في تغييره:

«إلا أننا كما قال جلال [جلال آل أحمد] «منذ أن هجرنا سُنة الشهادة وبادرنا إلى تعاهد قبور الشهداء، رضينا بالموت الأسود طوقاً في أعناقنا» فبدلاً من أن نكون «شيعة علي» و«شيعة الحسين» و«شيعة زينب» أي «اتباع الشهداء» أصبح رجالنا ونساؤنا يقيمون مآتم العزاء على الشهداء لا غير، وهكذا بقينا في عزاء دائم!.

بأي دهاء غيروا خطاب الحسين وأنصار الحسين وبدلوا رسالتهم الخالدة، خطابهم الموجه للبشرية جمعاء. الأعداء الحاقدون به من كل مكان. وهو يصرخ «هل من ناصر ينصرني». ألا يعلم أن ليس ثمة أحد نصره ويثأر له؟ إنه سؤال يعترض التاريخ. تاريخ الغد البشري، وهو سؤال للمستقبل. سؤال لنا جميعاً. إنه سؤال ينتظر الحسين جوابه من محبيه. إنه دعوة إلى الشهادة وجهها الحسين إلى جميع أولئك الذين يعظمون حرمة الشهداء. ولكننا أخمدنا هذه الدعوة. وأسكتنا هذا الخطاب. وخيبنا أمل الحسين بالنصرة حين كان «يبحث عن شيعة» و«يطلب الأنصار» في كل عصر ومن كل جيل. أخمدنا تلك الصرخة حينما قلنا للناس: إن الحسين يريد الدموع. يريد الصراخ والعويل والنحيب»[1].

---

(١) الحسين وارث آدم: ص٢٤٣.

ثمة تطابق بين الثورية وبين التشيع[1]، وأي انفكاك بينهما يعني الانحراف والتخاذل عن طريق الحسين وقضية كربلاء بكونها قاعدة ومنهج، وإلا تحولت إلى حادثة استثنائية لايمكن التعويل عليها في استنباط الأحكام الشرعية والمواقف الإنسانية. فالتشيع ليس وظيفة وإنما موقف، والتشيع ليس عاطفة وإنما مسؤولية. التشيع ليس مذهب فقهي مختلف، وإنما رؤية آيديولوجيا متكاملة في تحقيق الإنسان كذات واعية حرية تقاوم سجن الطبيعة والجغرافيا، وسجن النظام الاجتماعي والطبقي[2]، منهج للإنتصار على النفس ومواجهة زيف الواقع والإعلام واعتباطيات التلقي والتبعية.

الحسين تصحيح الانحراف القبلي:

إن نهضة الإمام الحسين هي تصحيح للانحراف القبلي الذي تعرض له الإسلام. فبعدما قام النبي ﷺ بنقل العرب والناس من النظام القبلي إلى النظام الاجتماعي، قام بنو أمية بقلب النظام الاجتماعي إلى نظام قبلي[3].

فالحسين وارث خط الإصلاح وخط التكامل التاريخي منذ آدم وحتى محمد، خط العصامية الإسلامية من محمد وعلي والحسن وأبي ذر. فقضية الحسين أكبر من أن تسعها أرض

---

(١) علي شريعتي: «التشيع العلوي والتشيع الصفوي» ص٢١٩. دار الأمير ٢٠٠٢.
(٢) علي شريعتي: «بناء الذات الثورية»، ص٢٧. دار الأمير ـ بيروت ٢٠٠٥.
(٣) الحسين وارث آدم: ص٢٢٣.

كربلاء، وقضية كربلاء أعمق من أن تكون محدودة بشهر محرم وعاشوراء:

«فالحسين ليس سياسياً «حارب» يزيد لأنه كان يشرب الخمر ويلعب بالكلاب فوقعت هذه «الحداثة الأليمة». الحسين وارث الراية الحمراء التي تناقلتها الإنسانية يداً بيد منذ زمن آدم، وهي اليوم بيد الحسين، وقد أعلن عليه السلام، شعاره: «كل شهر محرم وكل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء»، وأودع الراية بيد قادة الناس وجميع المطالبين بالعدالة في تاريخ البشرية. تتداولها الأيدي يداً بيد. ولهذا صرخ في لحظاته الأخيرة وهو في طريقه إلى الموت وتسليم الراية. صرخ في الأجيال المتعاقبة على مرّ العصور المقبلة: «هل من ناصر ينصرني؟!». ثم تبين لنا فيما بعد أن «الوراثة لم تدخل هذا النص [نص زيارة وارث] لمحض الصدفة، ولم تكن هذه المفردة تعبيراً أدبياً ليس إلا. إنما هي مصطلح علمي تاريخي، وهي في الإسلام أصل فلسفي عقائدي»[1].

ثار الحقيقة في حركة النبوات:

ويعزز علي شريعتي هذه الفكرة بشروحات ظافية مؤكداً بكون هذه الفكرة ليست إبداعاً ذهنياً شخصياً وإنما هي فكرة أصيلة في أدبيات أهل بيت النبوة. لكنها بقيت مطمورة لم يُكشف عنها إلا بواسطة منهج الاجتماع الديني، ومنهج الفحص الثقافي للتاريخ:

---

(١) المصدر نفسه: ص١٢٣.

«ومن المدهش أن انطلاقة التاريخ، والخطوة الأولى تبدأ بالثأر: هابيل، ولم نقل آدم لأن آدم يعني الإنسان، حقيقة الإنسان، أبو الجميع، أبو كلتا القبيلتين، كلي الإنسان. فآدم ليس جزءاً من تاريخ الإنسان، وإنما يبدأ التاريخ الإنساني من بعد آدم حيث انقسم الإنسان إلى قبيلتين: قبيلة طاغوتية وقبيلة إلهية، وهذا هو التقسيم القبلي الذي يرتضيه الإسلام، أي تقسيم الإنسان إلى قطبين متصارعين على طول خط التاريخ، وبدون هذا التقسيم لا يمكن فهم الإسلام، ولا فهم تسلسل الإمامة، ولا فهم رسالة إبراهيم.

ونلاحظ هنا أن انطلاقة التاريخ تبدأ من بعد آدم حيث يتشكل المجتمع البشري ـ الإنسان، المجتمع، الحياة، العلاقات الإنسانية، الروابط البشرية ـ بالشكل الذي نشاهده اليوم في مجال محدود جداً، وهذا يعني بداية انقسام المجتمع البشري إلى قطبين حيث انطلق التاريخ من «ثأر».

القبيلة (نسبةً إلى قابيل) التي سفكت دماً من القبيلة الهابيلية (نسبةً إلى هابيل) ومن ثم بدأت «الوراثة». وثمة ترابط وثيق بين مفهومي «الثأر» و«الوراثة» وهما معاً يفسران فلسفة التاريخ في الإسلام. فـ«الوراثة» اصطلاح ورد كثيراً في الأدعية والزيارات خصوصاً في شأن الإمام الحسين، ونلاحظ أن «زيارة وارث» تعتمد اعتماداً كلياً على هذا المفهوم. وهذه الزيارات والأدعية، أعطتنا درساً عميقاً، وهي ليست أمراً محدثاً فهمناه الآن أو ارتجلناه ارتجالاً!. بل إنها كانت موجودة في أدبياتنا، وكانت

واضحة غاية الوضوح إلاّ أن الغفلة وعدم الوعي حال بيننا وبينها وإلا فـ«زيارة وارث» تعني أني أفهم الحسين كحلقة وصل في السلسة المتصلة منذ آدم إلى آخر الزمان. ولهذا أقف بين يديه وأخاطبه واستوحي منه وأعرف من هو؟ وأردد ما قام به دائماً وأبداً»[1].

صياغة معاصرة لمفهوم الزيارة:

إن هذا الوعي الجديد بمادة «الزيارة» هو الذي سوف يكون الرافد الجديد لحركة التنوير الديني، كما نجد صداه لدى الشيخ محمد مهدي شمس الدين مثلاً:

«وثمة تأكيد مطلق على أن الزيارة لتؤثر أثرها، لابد أن تكون عن وعي لدور المزور في حركة الإسلام وموقعه في الجهاد في سبيله. إن حالة الوعي هذه هي المعنية في النصوص الكثيرة التي وردت في شأن من زار الحسين «عارفاً بحقه».

إن هذه المعرفة بحق المزور تعني الوعي لدوره الذي أنجزه في حياته، ولمركزه في قيادة حركة الإسلام في مجالي التشريع والتطبيق، وحينما تمارس الزيارة في ضوء هذا الوعي تعزّز قلب الزائر وفي عقله صلة بالإسلام المتحرك الفعال، لأنها تصله بالنماذج المتحركة الفعالة في تاريخ الإسلام.

إن زيارة الرسول وأئمة أهل البيت ليست تسلية وليست

---

(١) المصدر نفسه: ص٢٣٠.

عملاً دنيوياً، إنها عبادة روحية، إنها عمل يراد به التقرّب إلى الله تعالى، ولأنها عبادة فقد اشتملت النصوص الداعية إلى ممارستها والمواظبة عليها وعودٍ سخية بالثواب من الله تعالى، ومغفرة الذنوب والخطايا، وإسباغ البركات. وهذا أمر مفهوم حين توضع الزيارة في إطارها الصحيح الذي كشف عنه. ولا تغدو مجرد عمل تكريمي احتفالي يقوم به إنسان حي لتكريم إنسان ميت، فإن الشيعي حين يقوم بالزيارة يكون قد جدد صلته بالإسلام ككل، وعاهد الله على التمسك به والحفاظ عليه، وتطبيقه في حياته، وهو عمل يستحق عليه الثواب والبركات من الله تعالى بموجب مبادئ الإسلام.

وبما ذكرنا تتضح عظمة هذه المؤسسة وأثرها الكبير في صنع الإنسان الشيعي، والإمكانات الضخمة التي تحفل بها، ومدى وضعه الاستسلامي إلى وضع متحرك إذا استعاد المفهوم الصحيح للزيارة ومارسها بالروحية الأساسية التي انطلقت منها. ويتضح مدى فداحة الخطأ الذي وقع فيه الإنسان الشيعي، وبعض قيادته الروحية حين فهم الزيارة على أنها تكريم وتعظيم للأشخاص فقط، وغفل عن الأهداف التربوية المتعددة الجهات التي قصدت منها»[1].

فالزيارة ليست نصوص تجريدية، والزيارة ليست نصوص أخروية، أو نصوص تكريمية ليس إلا، فحرص الأئمة وأصحابهم

---

(١) محمد مهدي شمس الدين: «واقعة كربلاء» ص٦٢.

على الزيارة يدل على كونها تتخطى مسألة التبرك وطلب الثواب العبادي الطقسي، وأنها وسيلة للتربية الثورية وصنع الإنسان العقائدي الفاعل:

«فكانوا عليهم السلام وخاصة أصحابهم، يداومون على هذه الزيارة لكي يتأثروا لكي يتأثروا بروح الحسين عليه السلام، باعتبار أن الشيعة تعرّضوا للضغط في مختلف العصور، فأراد الأئمة عليهم السلام، صنع رجال على مستوى المسؤولية، بأن يعيش أهل البيت عليهم السلام، في فكرهم بشكل حي، فكانوا يستهدفون صنع رجال من نمط يتفاعل مع الحسين عليه السلام، وأهدافه وآدابه ليجدوا عند ملامستهم كربلاء، بسبب إراقة الدماء والتضحية. فماذا رسم الحسين؟ لقد رسم البطولة والصبر والكرامة والإباء والمثل العليا والفداء والمبدأ الصحيح»[1].

إن الزيارة وسيلة حركية لصناعة الشخصية الإسلامية النقدية وتجديد روح النضال الجمعي، وهي بذلك تقدم ترابط ثقافي متصل بين الأجيال لتوريث راية الحرية ووثيقة الحقيقة:

«والشائع في أذهان الناس، وحتى في أذهان الكثرة الغالبة من الشيعة أنفسهم في العصور المتأخِّرة، عن الدوافع والشائع في أذهان الناس، وحتى في أذهان الكثرة الغالبة من الشيعة أنفسهم في العصور المتأخِّرة، عن الدوافع إلى الزيارة، أنها دوافع تتصل بتكريم الأشخاص المزورين لأنهم كرام عند الله، وتتصل بطلب الشفاعة منهم عند الله. وتتصل بطلب البركة بواسطتهم من الله.

---

(١) محاضرات الوائلي: ج١ ص٩٥.

باختصار: الشائع أن هذه الدوافع تتصل بأشخاص المزورين وأشخاص زائريهم، وهذا كل شيء. ولكن هذا خطأ كبير. خطأ غير الشيعة في فهمهم لهذه الممارسة الشيعية نتيجة للحكم عليها من خارج، وعدم الإطلاع عليها من داخل، وعدم الإطلاع على منطلقاتها في الفكر السياسي والإجتماعي لأئمة أهل البيت جعلوا من «الزيارة» الثابتة في التقليد الإسلامي المشروع والتي مارسها المسلمون باستمرار، مؤسسة سياسية ـ اجتماعية ـ ثقافية، ثابتةً في صميم التكوين الثقافي الشيعي.

وخطأ من الشيعة أنفسهم في ممارستهم للزيارة. نتج عن انحلالهم كمؤسسة تمثل ـ في تاريخ الإسلام ـ البؤرة الثورية التي نصّبت نفسها دائماً شاهداً وناقداً للحكم القائم وأساليبه في التعامل مع الأمة.

فحينما تصدّع البناء الداخلي للإنسان الشيعي. وتخلى عن مناقبه الأساسية، حوّر فهمه للممارسات التي أُنشئت لتكون غذاءً لروحه وفكره فحوّلها إلى ممارسات تخّدره، وتبرر وضعه الانهزامي، وهذا ما حدث للإنسان المسلم بوجه عام (. .) لقد وجّه أئمة أهل البيت شيعتهم نحو الزيارة للنبي والأئمة السابقين عليهم لخدمة هدف كبير هو إبقاء الصلة حية ونابضة بين الإسلام الحي وبين الإنسان الشيعي، لئلا يتحول الإسلام في ذهنه إلى مجرد ممارسات طقوسية وفقه ميت. ولئلا تكون النماذج التطبيقية «الرسمية» للإسلام التي يعايشها المسلم في حياته اليومية على صعيد الحكم وعلى صعيد المجتمع، هي النماذج المحتذاة

والمعترف بها من قبله. وإنما تبقى حية في ذهنه النماذج السليمة الأمينة الصادقة للإسلام.

إن أئمة أهل البيت حين جعلوا من الزيارة مؤسسة فكرية ـ سياسية ـ اجتماعية، أرادوا أن يجعلوا الإنسان الشيعي على صلة حية ومباشرة بمنابع إسلامه في الفكر والنظرية، في التطبيق والممارسة»[1].

حوار الدم مع المؤسسة:

بهذا المبنى حقق الإمام الحسين حوار الدم مع التاريخ، حيث الشهادة هي تحرير النطق من أسر الترهيب والتردد والانعزال. كان لا بدّ للحسين أن يأخذ موقف الشهادة الكبرى، ذلك الموقف الذي خط كمسار وكراية وخط وكبرنامج انتماء الإمام علي وأبو ذر الغفاري وعمار بن ياسر والإمام الحسن وحِجر بن عدي. فقد عادت الجهالية كرة أخرى وقد ارتدت بلبوس آل أمية لباس الإسلام، فها هو القرآن يُرفع كي يتم قتل علي وتسميم الحسن، وها هو قرار الخلافة يصرخ بوجوب ذبح ابن النبي الحسين كما تم من قبل طرد أبو ذر واغتياله:

«أعادوا «مناة» إلى غفار مرة أخرى ونفوا جندب بن جنادة [أبو ذر] رائد غفار، بتهمة القبس الذي أخذه من جذوة حراء ليضيء به ظلمات الجاهلية في قبيلته. نفوه إلى حيث الوحدة

---

(١) محمد مهدي شمس الدين: «واقعة كربلاء» ص٥٨.

والغربة والموت الأسود في متاهات البيداء. نفوه بفتوى كعب أحبار اليهود وفرمان المتقمص لحكومة الله، وتنفيذ طريد رسول الإنسانية»[1].

لقد أكد الإمام الحسين على معنى الشهادة، وكون الموقف الإصلاحي من خراب العصر هو مخ العبادة الذي بدونه تتحول الشعائر والفرائض الدينية مجرد حركات فارغة وممارسات بائسة. وعلى هذا الأساس ترك الإمام الحسين الطواف حول الكعبة واتجه صوب العراق، كي يُلفت الأنظار ويعلن الثورة ويعلن معنى الإسلام الحقيقي بكونه ممارسة حياتية وليست طقوس أموات من أجل الموت:

«لقد علّمنا «الحسين» درساً أعظم من شهادته، إنه **عدم إتمام الحج!** والتوجه نحو الشهادة. الحج تلك السُنة التي جاهد جميع أسلافه وأجداده وجدّه وأبيه من أجل أحيائها. إنه لا يتم هذا الحج، ويختار الشهادة. لا يكمل مراسم الحج ليعلّم حجّاج التاريخ ومصلّي التاريخ والمؤمنين بسنّة إبراهيم أنّ الطواف حول بيت الله سيكون كالطواف حول بيت الأصنام إذا لم تقم الإمامة ولم يكن القائد، وضاع الهدف، وافتقد الحسين، وكان يزيد.

ففي اللحظة التي قطع فيها الحسين حجّه وتوجّه نحو كربلاء، فإنّ كل من استمر بالطواف في ظل غياب الحسين، فإنه

---

(١) الحسين وارث آدم: ص١٨٧.

تماماً كمن يطوف حول القصر الأخضر لمعاوية. فالحجّ سنّة إبراهيم محطّم الأصنام في بيت الناس أو في بيت الله، فما هو الفراق؟ ما الخبر هذا العام؟. عاصفة من البشر تطوف في تدافع وحرارة، الوجوه قد لوّنها الشوق، والقلوب قد انخلعت من العشق، لبّت دعوة الله، فحرارة الإيمان وهدير الإسلام والخوف من الله والوحشة من عذاب الآخرة والخوف من عقاب النار وشوق العبادة، دفعت الأمة إلى الدوران المقدس. ومن بين الوجوه: أصحاب النبي، السابقون في الإسلام، أبطال الجهاد وفاتحو بلاد الكفر، محطمو بيوت أصنام الأرض، حماة التوحيد، حفّاظ القرآن، المتعصبون للسنّة وعلماء الدين الحنيف. الكل يطوفون ويجددون العهد مع إبراهيم. متخلين عن الدنيا الدنيئة وعن هذا العالم الترابي وعن كل وضيع على سطحها. تعلقت قلوبهم بالله، يطوفون والجنة تتراقص أمام أعينهم وتغامزهم الحور العين، وتصفر لهم الملائكة من تحت العرش وجبرائيل ينشر أجنحته تحت خطوات طوافهم!.

مَن هذا الذي شقّ العاصفة المتراصّة لطواف المسلمين وخرج من بينهم غضبان ثابتاً هكذا، تاركاً خلفه مدينة الحرم والأمن والقداسة؟

وحيث المسلمون كلهم يستقبلون الكعبة، إلى أين يتوجه يا ترى؟ ولماذا لا ينظر خلفه ليرى تلك الدائرة التي تطوف بالناس حول بيت إبراهيم وبصوت النمرود. ويهرولون الصفا والمروة سعياً، ويتحركون من عرفات ـ التي هي بداية التاريخ وأول لقاء

بين آدم وحواء على الأرض ـ يتوجهون في ظلام الليل إلى المشعر الحرام، ويدعونهم للنوم في أرض حرام الشعور ـ المحرّم دخولها على عبدة الليل والجهل ـ حتى إذا بان الفجر وطلع الصباح، حرّكوا قطيع أغنام الله نحو منى ـ أرض أصنام التثليث المشؤوم ـ ليمازحوا إبراهيم، ويخدعوا الله، ويلعبوا لعبة الرمي مع الثلاثة من معبوديتهم منذ آدم وحتى آخر الزمان. ويلقوا سبعة حصيات جميلة ملونة بأطراف أصابع مداعبتهم نحو الوجوه البيضاء للثلاثة من آلهة أرضهم وزمانهم مداعبة وعربون محبة لهم! ويذبحون الخراف كرمز لمصيرهم الذليل، حيث أغنام الله، وأولئك الممثلون الدائمون للإله ينعمون دوماً من صوفهم وجلدهم ولحمهم، فأولئك هم ضحاياهم الدائمون. ويذبحونهم في كل ما كان من أجل أنفسهم حيث الألسنة معقودة. وتجري دماؤهم الحمراء في عروق القصر الأخضر ومسجد ضرار وبيت مال قارون. وفي الختام يحلقون رؤوسهم رمزاً لخضوعهم لعبودية الجمرات الثلاث. ورمزاً إلى أن آلة فعل الجور هي الجهل وعبيد المصالح الذين تلطخت أيديهم بدماء الحقيقة، وأولئك هم الذين يهيئون لشهادة الإنسان بسبب غيابهم. حيث يرقد الطاغية خلف أقنعة تقواهم وقدسيتهم، إنهم الحجاج الذين يذبحون بأيديهم ـ دوماً وفي كل مكان بوسوسة من الأصنام الثلاثة ـ يذبحون إسماعيل عند أقدام النمرود، فيحتفلون في يوم التضحية بالإنسان بذبح إسماعيل الزمان. عندها يخلّفون الكعبة خلفهم، ويتوجهون نحو قبلة الذل والحياة، ويشترون جنة الآخرة بثمن جهنم الدنيا، ويستلقون على الرماد الحار لمطبخ الزعماء سكارى من خمر

العافية، غارقون في لذة اجترار بقايا وفتات موائد النهب»[1].

حركية الشهادة ضد جمود الحياة:

وراية الحق والإصلاح لا يرثها سوى الشهداء. فالشهداء هم الذين لايقبلون بجمود الحياة ولا بتفاهت الموت والموت البسيط. حيث:

«للشهادة ولمفهوم الشهيد ـ سواء كان وطنياً أو دينياً وسواء كان في الأديان الشرقية أو غيرها ـ قدسية مفروغاً عنها، فكل رسالة أو دين أو أمة أو عقيدة، تقدس شهداءها حتى لو كانت تلك الرسالة أو العقيدة مادية وليست دينية، لأن مفهوم الشهيد وصورته والمشاعر المتوجهة نحوه تكتسب نوعاً من القداسة التي تكتنف الشهيد، فحتى المذاهب والأديان التي لا تؤمن بالقداسة والتقديس تعتقد بقدسية الشهيد، وهذه الحالة تنشأ من العلاقة الخاصة التي تربط الشهيد بالمعتقد والرسالة، وهذه الحالة تنشأ من العلاقة الخاصة التي تربط الشهيد بالمعتقد والرسالة، يعني مصدر القيم والقداسة، والعلاقة بين الأفراد وعقيدتهم علاقة تقديس دائماً، علاقة الأفراد بالمقدسات التي يؤمنون بها، وهذه العلاقة بنفسها توجد بين الشهيد والعقيدة، وتوجد أيضاً بشكل غير مباشر بين أنصار العقيدة وشهدائها، فالمنشأ ـ إذن ـ هي المقدسات العقائدية أو الوطنية أو الدينية التي يؤمن بها الجميع.

---

(١) علي شريعتي: «الفريضة الخامسة»، ص٣٢٨.

هناك بحوث في حقل «أصالة الوجود» تشبه كثيراً بحوثنا في بعض أقسام الولاية وآثارها: الإنسان شخصية ذاتية وشخصية تكوينية لها أبعاد، فالكل متساوون في «الوجود» لهم شخصيتهم الوجودية الأولية. وكل من لبس الثياب فهو موجود، وأما ما يقوّم شخصيته بمعنى الكلمة ويميزه عن الوجودات الأخرى فهو صفاته وأبعاده الروحية ومشاعره وعواطفه وغرائزه وخصوصياته، يعني نفس تلك الأمور التي إذا فكر بها أحس بـ«الأنا» وشعر بماهيته واستطاع أن يقول: «أنا موجود» (. .) «أنا» باعتباري إنساناً ولدت ثم تبلورت شخصيتي وأصبحت ذات صفات وخصائص وقيم سلبية وإيجابية، وحصلت على نوع من المعرفة بنفسي واكتسبت «هوية» خاصة بي، من أين جاءت هذه القضايا؟.

يقول هايديجر: تتشكل شخصية الإنسان من مجموعة معارف في حياته، والمعرفة عبارة عن العلاقة الواعية بين وجودي «أنا» مع الأشياء أو الأشخاص أو الأفكار الخارجية، فإذا حصلت علاقة وارتباط ذهني ووجودي بيني «أنا» وبين الأفراد أو الحركات والظواهر والأشياء والأفكار الأخرى فإن هذا «الارتباط» يولد انعكاساً في «الأنا»، ويصير هذا الأنعكاس جزء من ذاتي «أنا»، وتتشكل منه شخصيتي فتكون شخصية الإنسان (. .) فهناك إذن علاقة طردية بين وجود الإنسان وبين مقدار معارفه ومراده ومعلوماته (. .) ثم إننا إذا أعطينا جزء من وجودنا لشيء ما فإنه سيصير جزء من ذلك الشيء (. .) والشهيد هو من يمنح وجوده بالكامل في عملية واحدة، ويفني نفسه من أجل تلك

العقيدة وذلك الهدف المقدس الذي نؤمن به وبقدسيته جميعاً، ومن الطبيعي أن تسري قدسية المعتقد والهدف بالكامل إلى الوجود الذي ضحى به الشهيد. ولهذا نلاحظ وجوده يعدم في لحظة ويتحوّل صفر، بيد أنه يكتسب قيمة الهدف الذي ضحى من أجله اكتساباً مطلقاً، ويتحوّل إلى «قداسة» مطلقة في ذهن الأفراد وأفكارهم لقد تحوّل الإنسان النسبي إلى إنسان مطلق. لأنه ما عاد إنساناً، شخصاً، أو فرداً وإنما هو فكر مقدس، لقد راح الفرد فداء للفكر فصار فكراً.

وعليه فنحن لا نرى في الحسين شخصاً خاصاً، ولا نراه ابن علي فحسب. فالحسين اسم للإسلام، للعدالة، للإمامة، للتوحيد. ونحن لا نعظم ونقدس فيه شخصاً، فرداً، حتى نقارنه فيما بعد بغيره من الشهداء لنعرف الأفضل ثم نقيمه على أساس ذلك. أبداً ليس الأمر كذلك، فإذا تحدثنا عن الحسين فلا نقصد «الحسين» الفرد وإنما الحسين عبارة عن فرد ذاب وضحى بنفسه بأروع صورة يمكن أن يتصورها إنسان. ضحى بنفسه بخلوص مطلق في سبيل «مقدسات» مطلقة، فتحول إلى قدسية مطلقة، وصار ذات تلك «المقدسات» التي راح ضحيتها ولم يبقى منه سوى الاسم، وأما محتواه فلم يعد فرداً وإنما هو فكر قد تحوّل إلى المصدر والرسالة، صار فكراً يساوي الرسالة. وهكذا الأمر في من يستشهد في سبيل الأمة فإنه يكتسب قداسة الأمة»[١].

---

(١) الحسين وارث آدم: ص٢٩٢ ـ ٢٩٨.

الشهادة هنا منهج يحقق الغاية بمستواها الأعلى وتجسيدها المثل الأعلى للسمو الإنساني في تعلقه بما يعشق وما يطمح إليه حيث:

«تمثل الشهادة في تاريخ نمو الشخصية الإنسانية إحدى المعالم الكبرى في مسيرة هذا النمو نحو الاكتمال، كالحب والوفاء والإيثار، وما إليها من أخلاق تتجاوز بالإنسان ذاته نحو محيط الإنسانية الأوسع. بل إن الشهادة تمثل في رأينا ذروة هذه المعالم وأقصى ما يمكن أن يصل إليه إنسان في نموه الروحي وتكامله الإنساني، لأنها تعني هبة كل شيء شخصي، وكل متعة ذاتية للآخرين ومن أجلهم، مع ما يصحبها في الغالب من عذاب جسدي. بينما أخلاق الحب والوفاء والإيثار، يمكن للإنسان أن يحتفظ معها بجانب كبير من ذاتياته ومصالحه الشخصية. ومن هنا لا تتاح لكل إنسان، لأن تحقيقها يتوقف على توفر شروط موضوعية لا يكون الموت شهادة بدونها»[١].

بهذه المنطلقات والإمكانيات فتح الإمام الحسين درب النصر للمستضعفين، ودرب الوعي النابض المتسع لأرباب الفكر:

«إن الحسين أعظم مغلوب منتصر في التاريخ. ولهذا نراه يبدأ بعد ثورته بالمواجهة السلبية في العالم الإسلامي، ويلهم جميع حركات المثقفين الواعين والعلماء والمتقين، ولانذكر

---

(١) محمد مهدي شمس الدين: «أنصار الحسين، الرجال والدلالات» ص٥. المؤسسة الدولية للدراسات والنشر ـ لبنان ١٩٩٦.

الشيعة نموذجاً لذلك وإنما نذكر تأثيره في السنة وعلمائهم الكبار ممن يهتمون ولو قليلاً بحيثياتهم العلمية والدينية»[1].

التواصل الملحمي لوجدانية الثورة:

فالحسين عبارة عن رمز التواصل التاريخي مع وجدان الثورة ووعي المستقبلية بحتمية التجديد والتقدم. فعلى كربلاء تواجهت الحقيقة مع الخديعة، والطبيعة مع الخيانة، والله مع الخان. فكان شموخ الحسين انه العنق الذي ذبحه التاريخ مراراً بسيف التزوير، لكنه كان يعود إلى الحياة مرةً بعد مرة، أكثر تألقاً وأشد صلابة:

«أرى عنقاً تشمخ كأنها قمة حراء. كأنها قلعة شماء تتربع على جبل سامق. أرى عنقاً تنهال عليها طعنات التاريخ بلا هوادة. توشحها الجراحات والكدمات غير أنها تبقى شامخة لا تنحني»[2].

فما بين الرافدين قامت الحضارات الكسروية والزرادشتية والعربية، وما بينهما التقى نهرا دجلة والفرات، وما بينهما شُيد إسلام الخلافة وتصارع مع إسلام القرآن، وما بينهما تصارع التاريخ مع الجغرافيا:

«توافق وتطابق عجيبان، هذان النهران ينبعان من عين واحدة، ويجريان على طول التاريخ ويتباعدان. بيد أنهما يتقاربان على مقربة من بغداد، مركز الخلافة الإسلامية المعبرة عن «إسلام

---

(١) الحسين وارث آدم: ص٢٨٦.

(٢) المصدر نفسه: ص٢١٥.

الخلافة»، ومن ثم يمتزجان معاً ويصيران شيئاً واحداً، ويكونان شطاً كبيراً، «شط الإسلام»؟ كلا: شط العرب!.

يا للروعة! الجغرافية أصدق لهجة من التاريخ، وطبيعي هذا، لأن الجغرافية طبيعة الله والتاريخ طبيعة «الخان» ـ آلهة الأرض أو الطاغوت.

وبالرغم من النجاح الكبير الذي سجلته جبهة الجور والظلم والدين الرسمي الحاكم، إلاّ أن القدر الحاكم على الطبيعة والتاريخ يؤكد انتصار العدالة وتحقق أمنية المساواة الإنسانية وزوال النفاق وانتهاء المعركة الوحشية. معركة ثعالب التاريخ البشري وذئابه. وإنما تملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما تُملأ ظلماً وجوراً أليس كذلك؟. ولهذا يصب شط العرب في «البحر»![1].

بين نهريّ دجلة والفرات وبين التاريخ والجغرافيا، وبين النبوة والإمامة وبين الشهادة، كمبدأ للحركة، والمهدوية، كتتويج، نصل، مع علي شريعتي إلى نتيجة محددة يحرص عليه شريعتي كنتيجة ثابتة في منهج مُحدد، نصل إلى فهم حي بالإمام الحسين كقضية نضال، وتتحقق واقعة كربلاء ليس كحادثة تاريخية وإنما كآيديولوجيا مستقبلية.

فالشهادة ليست مجرد عملية قتل والتضحية بالجسد، في ساحة المعركة. فالشهادة مفهوم يوسع ساحة المجابهة، فهي موقف سيال ومتجدد وليس قرار آني. وبهذا يعيد علي شريعتي رؤيته

---

(١) المصدر نفسه: ص١٤٨.

اعتماداً على تجديد تفسير بعض الآيات القرآنية مثل الآية ١٤٣ من سورة البقرة ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. فيرى شريعتي أن الشهادة معنى يجدده الفعل وليس فعل ينتهي في حدوده المعنى: (الشهادة هنا لا تعني القتل، وإنما تعني: أن ثمة شيئاً غائباً في طريقه إلى الزوال والأفول ومغادرة الميدان، يكاد الناس ينسونه تدريجياً. والشهيد يشهد لهذا المظلوم المقهور المخنوق الصامت، ومن ثم يعيده إلى الأوساط من جديد.

الشهادة أفق المسؤوليات:

إذا أدركنا أن الشهادة موقف عقلي وفكري ورمزي وليس تضحية بدنية زمنية، أدركنا الشهادة تألق لسلم المسؤولية وليس نهاية لها، الشهادة بهذا معنى تأويلي مستمر ومفتوح:

وللشهيد هنا معنى آخر: فالنبي شهيد وإن لم يقتل، إنه شهيد بدون أن يكون مقتولاً، ومهمة الأمة الإسلامية التي بينها القرآن ومسؤوليتها «الشهادة». الشهادة بدون قتل، مهمة الأمة أن يكونوا شهداء كما كان الرسول شهيداً عليهم. وعليه فإن مقام الشهادة، ومفهومها ومداها أعم وأعلى وأوسع من القتل. غاية ما في الأمر أن من يضحي بنفسه يؤدي الشهادة بأعلى وأرقى صورها ومراتبها، لأن أفراد المسلمين مكلفون بإقامة المجتمع «الشهيد» والقدوة للآخرين كما أن النبي نموذج وقدوة للآخرين كما أن النبي نموذج وقدوة نبني أنفسنا على أساسه، النبي «شهيد» علينا

ونحن «شهداء» على الناس. فالشهيد هنا بمعنى «فارس الميدان» «وسط الأمر» «نموذج» «قدوة» «مثال يحتذي به الآخرون» ويقوّمون أنفسهم على أساسه. يعني أنكم اجعلوا النبي وسط ميادين الثقافة، الإيمان، العلم الفكر، المجتمع واتحذوه قدوة في بناء شخصياتكم، مجتمعكم، ثقافتكم، ظاهركم وباطنكم، وحينما صنعتم أنفسكم على أساس ذلك النموذج وتوسطتم ميادين الجغرافيا والتاريخ، يجب حينئذٍ على باقي الأمم والشعوب أن تقتدي بكم وتبني نفسها على مثالكم. فهم شهداء، يعني أن النبي يؤدي لهم دوره، ويقومون هم بدورها لغيرهم من الأمم، فيؤدون دور النموذج والإنسان والأمة القدوة. ولهذا أصبح معنى «أمة وسطاً» يناسب معنى الشهيد ويلتئم معه تماماً، فغالباً ما يفسرون «أمة وسطاً» بمعنى الأمة المعتدلة، التي لا تبتلي بالإفراط والتفريط، لا تغرق في الماديات ولا في الروحانيات، الأمة التي توازن بين الروح والجسد والماديات والمعنويات وتسلك في سبيل ذلك طريق الاعتدال والوسط. وهذا المعنى مأخوذ في أساس الرسالة بيد أن «الوسط» المقصود في رسالة الأمة التي يراد لها أن تكون «شهيداً» على الناس له معنىً أعظم بكثير، يعني أننا «أمة» نتوسط الميدان، ميدان الأرض والزمان. نحن «فرسان الميدان». نحن قطب القضية نتوسط الساحة، لا نكون شرذمة تدور حول نفسها في أقاصي «الشرق الأوسط»، بعيدة غافلة عما يدور حولها، غافلة عن معارك الأفكار والقضايا المصيرية التي تبني حاضر البشرية وغدى التاريخ وتشكل صورة الحياة في كل مجال. لا نعرف سوى الاجترار وتكرار المكررات ثم تغمرنا السعادة!

كلا إنما نكون وسط الساحة ومحور الميدان. لا نكون أمة غائبة، معتزلة، بل نكون مجتمعاً أممياً في وسط الشرق والغرب، اليمين واليسار، مركز الأقطاب، وسط المعترك يحمل رسالته العالمية، كذلك الشهيد إنسان شاهد حاضر في جميع المواقف والميادين ليس بغائب عنها[1].

تطورات في التفسير القرآني لمعنى الشهادة:

وقد دفع فهم علي شريعتي إلى زحزحة التفسير التقليدي، ومن ذلك نجد مناقشة محمد حسين فضل الله مع محمد حسين الطباطبائي، في كتابه «من وحي القرآن»:

«﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ تقف في الموقع المميّز بين سائر الأمم من خلال الموقع القيادي للرسالة القائدة والدور القائد في الدعوة والحركة، كما كان الرسول كذلك بالنسبة إليهم في تبليغه وهدايته وقيادته .﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾. بفعل المهمة الموكولة إليكم في حركتكم القيادية في اتجاه النّاس مما يستدعي المواكبة والمراقبة والمتابعة بالمستوى الذي يؤهلكم للشهادة عليهم من موقع الإشراف على حركتهم في الخطّ الفكري والعملي، ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ لأنه هو الذي صنع الأمّة في وجودكم عندما أطلق الرسالة لتكون عنواناً لكم، وحمّلكم مسؤوليتها لتحدّد لكم الدور القيادي، ليشهد عليكم أمام اللّه كيف كانت مواقعكم ومواقفكم وأوضاعكم ودعوتكم إلى دينه.

---

(١) المصدر نفسه: ص٣٠٣.

في هذه الآية حديث عن الأمّة المسلمة بأنها «وسط» في ما جعله اللّه للمسلمين من موقع قيادي في الحياة، وأنها شاهدة على النّاس، وحديث عن الرسول بأنه شاهد على الأمَّة. فكيف نفهم هذه «الوسطية» وهذه الشهادة؟

جاء في مجمع البيان: «الوسط: العدل، وقيل: الخير ومعناهما واحد، لأنَّ العدل خير والخير عدل، وقيل: أخذ من المكان الذي يعدل المسافة منه إلى أطرافه، وقيل: بل أخذ من التوسط بين المقصر والغالي فالحق معه، قال مؤرّج: أي وسطاً بين النّاس وبين أنبيائهم، قال زهير:

هُمُ وَسَطٌ يرضى الأنام بحكمهم ذا طرقت إحدى الليالي بمُعظم

قال صاحب العين: الوسط من كلّ شيء أعدله وأفضله».

وقد جرى بعض المفسرين في تفسير هذه الآية مجرى التفسير اللغوي البحت، فأخذوا منه معنى العدل والتوازن على أساس ما تمثّله الشريعة الإسلامية من الوسطية بين الاتجاه الروحي المتطرف الذي يمثّله النصارى، وبين الاتجاه المادي المتطرف الذي يمثّله المشركون واليهود، لأنَّ الإسلام يأخذ من الروح جانباً ومن المادة جانباً، لتكون الحياة ـ كما خلقها الله ـ نتيجة التزاوج بين الروح والمادة، وتتمثّل في التوازن بين الاتجاه الجماعي المتطرف الذي يلغي دور الفرد، والاتجاه الفردي المطلق الذي يلغي دور المجتمع في الحياة، فأعطى للفرد دوره في ما يحقّق ذاته من دون أن يغمط حقّ الجماعة في نطاق قضاياها العامة، وأعطى للجماعة دورها في ما لا يلغي للفرد نوازعه الذاتية

الطبيعية. ويمتد الخطّ الوسطي إلى التوازن بين الدنيا والآخرة؛ فللمسلم أن يُقبل على الدنيا ويستمتع بطيباتها من دون أن يسيئ إلى خطّ الآخرة في السير مع شريعة اللّه في ما يفعل وفي ما يترك، وله أن يستغرق في الآخرة بما لا يمنعه من بناء الحياة والاندفاع معها على الأسس التي يريدها اللّه. ويمضي الكثيرون في استيحاء الكلمة من خلال ما في الإسلام من توازن في مختلف جوانب الحياة من حيث العاطفة والعقل، ومن حيث التفكير العقلي والطرق التجريبية، ومن حيث الزمان والمكان... وهكذا.

وفي ضوء ذلك، يمكن للأمّة أن تؤدي دور الشهادة على النّاس باعتبارها تقف في نقطة التوازن التي ترجع إليها بقية الأطراف، كما يكون النبيّ شهيداً على الأمّة لأنه المثال الأكمل الذي يوزن به حال الآحاد من الأمّة.

ويعلّق صاحب تفسير الميزان على هذا التفسير للآية، بأنَّ هذا المعنى:

«هو في نفسه معنى صحيح لا يخلو من دقة، إلَّا أنه غير منطبق على لفظ الآية. فإنَّ كون الأمّة وسطاً إنما يصحح كونها مرجعاً يرجع إليه الطرفان، وميزاناً يوزن به الجانبان، لا كونها شاهدة تشهد على الطرفين أو تشاهد الطرفين، فلا تناسب بين الوسطية بذاك المعنى والشهادة، وهو ظاهر على أنه لا وجه حينئذ للتعرّض بكون رسول اللّه شهيداً على الأمّة، إذ لا يترتب شهادة الرسول على الأمّة على جعل الأمّة وسطاً كما يترتب الغاية على المغيَّا والغرض على ذيه».

وإننا نتفق مع صاحب الميزان في هذه الملاحظة، لأنَّ قضية التفسير هي أن يدرس المفسِّر الكلمة من خلال الجوّ الذي تعيش فيه، ليتحقق الترابط بين الآيات في كلماتها وأجوائها. ونحن نرى أنَّ هذه الآيات تتحرّك في نطاق الإيحاء للمسلمين بأصالة موقعهم في الحياة من خلال الدور الذي أعدّه اللّه لهم في قيادة البشرية إلى الأهداف الكبيرة التي تتمثّل بالإسلام، الأمر الذي يجعلهم يتحرّكون في الحياة من هذا الموقع، ليكونوا شهداء على النّاس في أفكارهم وأعمالهم باعتبار أنهم يدخلون في ضمن مسؤوليتهم، كما كان الرسول شهيداً على المسلمين من خلال مسؤوليته الرسالية عنهم في ما بلّغهم إيّاه وفي ما أرشدهم إليه. وفي هذا الجوّ، لا نجد للوسطية معنى في ما حاوله هؤلاء المفسّرون من الحديث عن التوازن الفكري والتشريعي في المواجهة الإسلامية للحياة، لأنَّ القضية ليست قضية المضمون الإسلامي في صياغة الشخصية للإنسان المسلم، بل هي قضية الإيحاء للمسلمين بأنَّ عليهم أن لا يستسلموا للآخرين في الحصول على الثقة بالتشريع وبالمسار العملي، لأنهم لا يمثّلون التبعية للآخرين في مواقعهم، بل القضية هي أنَّ الآخرين يدخلون في نطاق مسؤوليتهم باعتبار أنهم يحملون الرسالة القائدة، والدور القائد في التبليغ والتنفيذ، كما كان الرسول بالنسبة إليهم في ما يبلّغه وفي ما يهدي إليه.

إننا نتصوّر الآية في هذا الموقع من خلال الأجواء العامة التي وردت فيها، ما يجعل من ذكر كلمة الوسط مقدّمة لتقرير فكرة الشهادة، ويوحي بأنَّ معناها يدخل في معنى العدل والفضل

انطلاقاً مما ذكره صاحب كتاب العين: «إنَّ الوسط من كلّ شيء أعدله وأفضله». فكأنَّ هذه الكلمة استُعيرت للأمّة المسلمة من أجل تأكيد الثقة في نفوسهم، على أساس ما حباهم الله من هداية إلى سبيله، لئلا ينهاروا أمام تضليل المضللين وتشكيك المشككين. وقد يوحي بذلك وقوع هذه الصفة بعد الحديث عن هداية اللّه لمن يشاء إلى صراط مستقيم، للتدليل على أنَّ الله أراد لهم هذه الهداية التي جعلتهم في هذا الموقع. ولعلّ طبيعة الشهادة على الآخرين أمام اللّه تقتضي أن يكون الشاهد في الموقع الأفضل من حيث الدور الذي أوكل إليه، ومن حيث السلوك الذي سار فيه، كما هي حال الأنبياء بالنسبة إلى أممهم. وهذا ما يؤكد المعنى الذي ألمحنا إليه؛ وربما يؤكد ذلك ويوضحه ما ورد في الآية الكريمة: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[1].

فإننا نلاحظ تفريع شهادة الرسول عليهم وشهادتهم على النّاس إنما هي على أساس اجتباء اللّه لهم وانضباطهم على الخطّ وقيامهم بالدور الموكل إليهم في العمل لأنفسهم وللآخرين؛ أمّا الحديث عن التوازن في الإسلام، فهو حقّ، ولكن ذلك لا يعني أنَّ الآية تسير في هذا الاتجاه في مضمونها الفكري.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.

وقد ذكر صاحب تفسير الميزان في معنى الوسط: «أنَّ كون الأمّة وسطاً إنما هو بتخلُّلِها بين الرسول وبين النّاس». ولكنَّنا قدّمنا أنَّ الوسطية هنا لا يُراد بها ذلك، بل يُراد بها ـ في ما نفهمه ـ الموقع الأفضل الذي وضع الله فيه الأمّة بالنسبة إلى النّاس؛ والله العالم بحقائق آياته.

أمَّا الشهادة، فقد ذكر لها عدّة معانٍ، منها: أنَّ المعنى: لتشهدوا على النّاس بأعمالهم التي خالفوا فيها الحقّ في الدنيا وفي الآخرة. كما قال: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾[1] وقال: ﴿وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾[2]، وقال ابن زيد: الأشهاد أربعة؛ الملائكة والأنبياء وأمّة محمَّد ﷺ والجوارح. كما قال: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم﴾[3].

ومنها: أنَّ المعنى: لتكونوا حجّة على النّاس، فتبيّنوا لهم الحقّ والدِّين، ويكون الرسول عليكم شهيداً مؤدياً للدّين إليكم، وسُمِّي الشاهد شاهداً لأنه يبين، ولذلك يقال للشهادة بيِّنة.

ومنها: أنهم يشهدون للأنبياء على أممهم المكذبين لهم بأنهم قد بلغوا وجاز ذلك لإعلام النبيّ ﷺ إياهم بذلك. وإننا نستقرب من هذه المعاني المعنى الأوّل، لأنَّ الاتجاه العام في آيات الشهادة هو الإيحاء للنّاس بأنّهم مطوّقون في يوم القيامة بالشهادة على ما فعلوه في الدنيا من جميع الجهات، وذلك من

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٩.

(٢) سورة غافر، الآية: ٥١.

(٣) سورة النور، الآية: ٤.

الجهات المألوفة لديهم في الشهادة في ما يشهد به الأنبياء والمبلغون، أو من الجهات غير المألوفة لديهم وهي شهادة اللّه والملائكة والجوارح، ليشعروا في الدنيا بالحاجة إلى الانضباط في كلّ ما يعملونه أو يتركونه، وليتعمّق إحساسهم الداخلي بالرقابة الموجهة إليهم من جميع الجهات. وقد جاءت آيات الشهادة في سياق واحد حتى لا يشعر الإنسان بوجود فارق بين واحدة وأخرى مع اختلاف شخصية الشهود، كما نلاحظه في الآيات التالية:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[1].

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[2].

﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[3].

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[4].

وهكذا نلاحظ أنَّ القضية تتجه إلى يوم القيامة بين يدي الله، للإيحاء بالإحاطة الكاملة بالإنسان من جميع الجهات التي يتصوّر

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤١.

(٢) سورة النحل، الآية: ٨٤.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٦٩.

(٤) سورة المائدة، الآية: ١١٧.

حضورها لديه من خلال المعاينة أو من خلال الإيمان، وذلك على أساس أنَّ الشهادة في تجربة الشهداء تتحرّك في الدنيا في الموقع القيادي الذي يتمثّل فيه الشاهد الواقع كلّه في حركة النّاس في الحياة ومدى التزامهم بالوحي الإلهي في خطّ الرسالات في دائرة السلب والإيجاب، ليقدّموها بين يدي الله في موقف الحساب، فلا تنافي بين مفهوم الشهادة في واقع الدنيا التي يتحرّك فيها الشهداء بين النّاس وبين حركتها الفعلية الأدائية في موقف القيامة أمام الله.

وفي ضوء ذلك، نفهم أنَّ المعنيين الآخرين لا ينسجمان مع الأجواء العامة للآيات، ولا سيّما المعنى الثالث الذي يركّز على حاجة النبيّ للشهادة على الأمم بأنّه بلَّغهم، إذا أنكرت الأمم ذلك، إذ لا معنى لحاجة النبيّ لذلك مع اعتباره شاهداً أساسياً تُطلب شهادته بشكل أصيل، ما يعني اعتبار شهادته قاعدةً للحكم على الأمم من خلال دخولهم ضمن مسؤوليته التي منحه الله الثقة في القيام بها بكلّ أمانةٍ وصدق.

وقد أثار المفسرون اعتراضاً في هذا المجال، وخلاصته أنَّ الشهادة تفرض الموقع المتميّز للشاهد على المشهود عليه، ونحن نعلم أنَّ الأمّة تضم في جماعتها المطيع والعاصي والجاهل والعالم، فكيف يمكن أن يكون الجميع شهوداً في موقع الشهادة؟ والجواب أنَّ الأسلوب القرآني قد جرى على الحديث عن البعض بصفة الكلّ، باعتبار اشتمال الكلّ عليه، تماماً كما قد حدّثنا عن بني إسرائيل، مع أنَّ الصفات التي ذكرها كانت صفات

البعض. . . وعلى هذا، فإنَّ كون الأمّة شاهدة يتحرّك في نطاق وجود العناصر الكثيرة في داخلها ممن يصلحون لمثل هذا الموقع الكبير، وهم الطليعة الواعية المؤمنة التقيّة المنضبطة التي تفهم الإسلام حقّ الفهم، وتعيه حقّ الوعي، وتمارسه حقّ الممارسة، وتحمله بروح رسولية رائدة. إنها النخبة الواعية الموجودة في كلّ زمان ومكان، التي يقف في طليعتها الأئمة الطاهرون والعلماء الواعون والأولياء الطيبون والمجاهدون العاملون الذين يحملون هذه الشهادة إلى الله، لأنهم يعيشون روح الرسالة، ويعيشون من خلالها الوعي لكلّ حياة النّاس، كما هو الرسول في رسالته وفي وعيه لأمّته».

رسالة الشهادة للاستشهاد الرسالي:

كربلاء هي استشهاد رسالي من أجل رسالة الشهادة، أي استشهاد مؤقت من أجل رسالة غير زمنية:

«ولهذا تسلح الحسين بسلاحه الأوحد لما فقد كل القوى وكل الأسلحة ولم يعد قادراً على امتلاك شيء منها ليدحض الباطل ويدافع عن الحق. تسلح بالموت ونزل به كالصاعقة على رؤوس الأعداء، وهوى به كالسيف يهشم به هامة العدو المهاجم.

هكذا هي الشهادة، إشعاع ونفوذ منقطع النظير. تتغلغل في الأعماق، وتشعل النور والدفء والحرارة في العالم أجمع، وفي القلوب الذابلة، والأرواح الكئيبة المكدودة، وتبعث الحياة والحيوية والنشاط والحركة في الإرادة المشلولة، والمواقف

المهزوزة، والأفكار الجامدة، والعقول المتحجرة، والظلمات المتراكمة، والأذهان الذاهلة الساهمة عن الحقوق والذكريات والأمجاد. الشهادة تمنح البصيرة والرجاء، وتحيي الآمال والطموحات وتبدل «لا يمكن أن نعمل أيّ شيء» إلى «يمكن أن نعمل أي شيء» بل إلى «لابد أن نعمل شيئاً». تقلب العجز قدرة واليأس أملاً.

الشهادة: قتلة تنتهي بإعدام العدو، غير أنه ليس بيد الشهيد وإنما بيد الذين صنعهم دم الشهيد، إنّ الشهيد لا يسقط العدو، ولكنه يجرّه إلى حافة المنحدر ويضعه على فوهة الهاوية.

إن الشهيد لا يختار الموت ليهرب من الواقع ويفرّ من المشاكل والصعوبات ويفلت من العار والضغوطات، إنه لا يختار الموت لينكمش ويفرّ من الزحف، وإنما يختار الموت ليبدأ هجوماً كاسحاً.

الشهيد يختار، وبه يدين الظالم، ويلزم المظلوم، ويفضح الظلم ويظهر المستور، ويثير الدفين، ويكشف المكتوم، ويعيد إلى الأذهان ما سلب منها، ويضخ دماء الحياة والثورة والحركة والغليان في قلوب الأفراد وصميم عقائد الأمة الخاملة المترهلة. دم الشهيد قبس وشموع تضيء الطريق للعيون التي ابتليت بالعشى في ظلمات الاستبداد والاستعمار السوداء. فلم تعد ترى خط الحق وطريق الهدى، ولا تقوى على تمييز الحق ومعرفة وجوه الحقيقة، وكل ما تراه فهو فساد مفسد.

دم الشهيد وهج ومشعل هداية يرشد الضالين والتائهين.

ويحدد معالم الطريق للغارقين في أوحال الذات والمتقوقعين والمشردين في الجبال والفيافي والقفار والمفاوز والوديان، إن الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة»[1].

الشهادة هنا ليست تلفظات قول، أو ارهاق دم تنتهي الحياة عنده، بل الشهادة فعل واعي تبدأ به الحياة وتتألق:

«حينما تجعل من حياتك رسالة وتجاهد في سبيل الله، وتصل إلى أعلى ما يصل إليه المجاهد وهو بذل دمه في هذا السبيل، ومن ثم تُسمى «شهيداً». والشهادة هي أن تكون حاضراً وحيّاً بكل ما في الحياة من سمات. فالشهيد موجود إلى ما لا نهاية، فهو مثال الحياة الأبدية»[2].

الإيمان كعنصر مستقبلي:

الشهادة بهذا المفهوم لاتصنع القدرة في الإنسان الفرد وإنما في الجماعة وتحولهم إلى «أمة» وبهذا يتحملون مسؤوليتهم في صنع المستقبل وفق فلسفة التاريخ. فالعقيدة هي وحدة استمرارية للإيمان تصنع فلسفة التاريخ الإسلامي، وهذا هو الذي جعل الدين عند الله هو الإسلام، أي أن الدين وحدة تاريخية[3]، فهناك دين واحد وليس مجموعة أديان وهناك موقف واحد ثابت وليس زعزعة مبادئ. وهنا تلتقي فكرة علي شريعتي

---

(١) المصدر نفسه: ص٣١١.

(٢) الحج الفريضة الخامسة: ص١٠٧.

(٣) الحسين وارث آدم: ص١٢٥.

وفكرة محمد صادق الصدر، بكون الأنبياء حركة واحدة يكمل بعضهم بعضاً، في مسيرة درب التربية لمجتمع الأمة، مجتمع التكامل والمسؤولية. وما الحسين سوى تلك الراية الخفاقة لقضية المجتمع المعصوم[1].

فجدل التاريخ يتكون من تناقض نوعين من الأمة: أمة آدم وأمة إبليس، أمة هابيل، وأمة قابيل، خط القرآن والحسين وخط بنو أمية ويزيد[2]. خط المعروف وخط المنكر، خط الله والتوحيد وخط الشرك والطاغوت[3].

فما دام الإسلام هو دين الحياة ورسالتها، كان لازماً أن نفهم قضية الحسين بكونها مفتاح تلك الرسالة ودرع الحماية لها. وما الإيمان بالمهدي وانتظاره، إلا تفعيل متجدد بقيمة تلكم الراية. حيث إن الإيمان بالمهدي الموعود، هي قضية متنوعة التفسير والتأويل والتلقي من قبل كل عصر وكل زمان، وليست مسألة لاهوتية متجمدة على حرفية التراث[4].

إن الإيمان بالمهدي يمثل ملتقى تيارات الإصلاح العظيم لتاريخ حركة النبوة في مراحل تربية البشرية. وعلى هذا الأساس يؤمن شريعتي، بما آمن به الصدر الثاني تماماً، بغيبة العنوان للإمام المهدي وليس غياب الشخص، فهو بعنوانه بكونه الإمام

---

(١) المصدر نفسه: ص١٥١.

(٢) المصدر نفسه: ص١٢٧.

(٣) علي شريعتي: «الحرّ، إنسان بين خيار الفاجعة والفلاح» ص٢٦.

(٤) الحسين وارث آدم: ص٣٤٣.

غائب، والا فهو حاضر ومشارك لحركة التغيير الكبير[1].

فالغيبة هي مسيرة المحافظة على وعي القضية الحسينية، والظهور هو الإفصاح عن طلب «الثأر»، ثأر هابيل، ثأر الإنسان، أو ثأر الله، فلا فرق بين مطالب الله والمصالح العليا للناس.

وهذا معنى كون ثورة الإمام الحسين خالدة، فخلود الشيء يعني بقاء حاجة الناس إليه، فنثري به حياتنا، ونغني به وجودنا. فالخلود سمة الحقيقة الحية[2]، سمة الهدف الصالح والتضحية السامية.

إحياء إرادة المواجهة:

ان واقعة كربلاء هي قضية ثورة الشهادة، أو الشهادة كثورة دائمة. تلك الثورة التي تعيد للأمة قوة المواجهة بعد موجات الانكسار والنكبات. فالأمة التي لاتصنع آيديولوجيا النهضة والثورة ستبقى أمة مهزومة تابعة لاتعرف الحرية ولا الكرامة ولا الإبداع. حيث إن التاريخ والتراث والذاكرة، أمور تبقى هي المكون الأقوى لعواطف الشعوب وعقولهم وطرق تشكيل أمنياتهم وهويتهم، فكانت عملية إعادة اكتشاف الحسين هي إعادة اكتشاف النفس البشرية السامية والعالية الهمة، كرةً بعد أخرى. فنهضة الإمام الحسين وثورته هي ثورة الضمير الإنساني، وليست ثورة

---

(١) المصدر نفسه: ص٣٢٦.

(٢) محمد مهدي شمس الدين «واقعة كربلاء في الوجدان الشعبي»: ص٧. المؤسسة الدولية للدراسات والنشر ـ لبنان ١٩٩٦.

محددة بهوية خاصة لمذهب ديني دون سواه، هي ليست ثورة إقليمية أو قومية أو مذهبية خاصة فاستحقت الاحترام والحب بل التوله والعشق والهيام[1].

لقد مثلت عاشوراء رمز القيمة الإنسانية في جدل الصراع مع قوى الشر وإغراءات الرذيلة:

«لقد مثلت الثورة الحسينية الجدلية الإنسانية الخالدة بين الخير والشر، وبين النبل والخسة، وبين الواقعية السياسية والمثالية الأخلاقية، وبين الغريزة القبلية والوعي العقلاني الطامح إلى تكوين الأمة المتلاحمة وبين الإنسان المرتزق والإنسان المبدئي. وقد دفعت حدة الصراع كل واحدٍ من قطبي الجدلية إلى أن يعبّر عن ذاته ورؤيته بوضوح مطلق من خلال ممارسة دامية مثلت فيها الثورة نبل الثوريين وإنسانيتهم العالية، ومثل فيها النظام الأموي أسوأ تطلعاته وأحط أساليبه.

طبيعة المأساة هذه جعلت كل إنسان قرأ عنها أو سمع بها أسيراً لها. ومن ثم فقد انفعل بها ـ بالإضافة إلى المسلمين ـ غير المسلمين أيضاً على مستوى العامة والمثقفين»[2]. فكانت ثورة كربلاء، الوعي الجمعي للأمة تعود إليه كلما فتر فيها العزم، وكلما ضاق حولها الطوق، لتعود فورة الدماء، وتتمدد قوة الحياة وينتشر النصر من جديد.

* ◗ *

---

(١) محمد مهدي شمس الدين: «واقعة كربلاء» ص٤٢.

(٢) المصدر نفسه: ص٤٣.

الخاتمة

تنافذات الوعي الثوري

خلاصة في التطابق والاختلاف:

في هذا العرض الموجز بين مقاربة الشهيدين محمد صادق وعلي شريعتي، توجد تطابقات كثيرة واختلافات متعددة نكتفي بذكر أهمها:

١ ـ كان علي شريعتي يطرح رؤيته الكاملة وهي رؤية خاصة لها نتائج خلافية. ولا يهتم بما يتوافق مع الذوق العام. بينما يوجد ثمة ارتياب في كتابي الصدر الثاني من القارئ لانجده لدى شريعتي، على العكس ثمة صدامية واضحة في كتاب شريعتي، رغم أنه أيضاً يكرر حرصه في محاولة عدم سوء فهم المتلقي خصوصاً وأن هناك من يتصيد في كلمات شريعتي لإثارة الناس ضده.

٢ ـ كان شريعتي يعتمد على جملة قواعد مذهبية ولم يهتم بكون هذا العرض هو عرض خاص داخل المذهب فقط، وأنه بالتالي يحمل أموراً حساسة قد تثير المذاهب الأخرى،

الأمر الذي دعى مترجم الكتاب إلى القول أن في كلام شريعتي بعض التصعيد الخطر طائفياً. وهو مجرد تهويل حيث إن القواعد الخاصة التي ذكرها شريعتي يمكن ايجاد الكثير من الأدلة حولها وهي مطروحة على طاولة النقاش وليست مفروضة قهراً على الآخرين.

٣ ـ يعتمد الصدر الثاني على مبدأ الاحتمال المنطقي، بينما يعتمد شريعتي على مبدء التفسير الغائي.

٤ ـ يعتمد الصدر الثاني على جملة من قواعد الفلسفة التقليدية الشرقية، بينما يعتمد شريعتي على جملة قواعد من علم الاجتماع والفلسفة الغربية الحديثة.

٥ ـ توجد جملة بحوث عقائدية لاهوتية تقليدية في كتاب الصدر الثاني، بينما أهمل شريعتي هذه البحوث واعتمد على الرؤية الاجتماعية للتاريخ، والاستفادة الآيديولوجية من الحقيقة.

٦ ـ يتفق الصدر الثاني وعلي شريعتي، على مقاربة ثورة الإمام الحسين، على أساس التجربة الحضارية للبشرية ومجتمعاتها، وليس على نصوص التراث فقط.

٧ ـ بالنسبة لكتاب شريعتي هو مجموعة محاضرات تمت كتابتها وتدوينها فيما بعد. وكتاب الصدر الثاني «أضواء على ثورة الإمام الحسين» رغم أنه ليس محاضرات إلا أنه أقرب إلى الشفهية، بدليل أن المؤلف يذكر في المقدمة عجلته إلى حدّ

أنه لم يكتب مصادر الأحاديث والروايات والوقائع التي تطرق إليها.

٨ ـ رغم أن الصدر الثاني يعتمد على الفلسفة التقليدية المدرسية، إلاّ أن خطابه كان يعتمد على الاحتمال في نتائجه واستنتاجاته، بينما شريعتي المعتمد على الفلسفة الأوروبية الحديثة ومناهج الاجتماع، لغته قطعية واستنتاجاته يقينية.

٩ ـ لقد أوضح محمد صادق الصدر أسباب ونتائج حركة الإمام الحسين الشخصية حيث الامتثال لله سبحانه ونيل درجات سامية من التضحية في سبيل الحق ونيل وصال العشق الإلٰهي، ونتائج وأسباب عامة تتمثل في حفظ الإسلام الحقيقي للمجتمع وتقديم مثل أعلى للتضحية والفداء من أجل قضية العدل والحق. بينما اكتفى شريعتي ببيان أسباب ونتائج الثورة الحسينية العامة فقط.

١٠ ـ لقد كانت مسألة تفسير موقف الإمام الحسين ولماذا أصر على موقف الاستشهاد دون غيره، مسألة محورية استغرقت الجزء الاكبر من كتاب محمد الصدر، بينما لم ينشغل علي شريعتي بهذه المسألة أبداً. وإنما منح بعض الجواب عنها من خلال التفريق بين الجهاد والاستشهاد. حيث الأول يريد الانتصار على العدو، بينما الثاني قد قرر الموت سلفاً حيث إن الغاية تمر عبر هذا الطريق فقط.

١١ ـ اتفق كلا من الصدر الثاني وشريعتي على انتقاد ذهنية المنبر

وجملة من سلوكيات بعض الملالي الذين يستغلون المنبر الحسيني لغرض التكسب الدنيوي والاكتفاء بقراءات سطحية جامدة. لكنهما لم ينشغلا بهذا الأمر حد جعله إحدى الموضوعات المستقلة في عملية النقد، بخلاف ما صنع الشهيد مطهري في كتابه «الملحمة الحسينية».

١٢ ـ كلا من كتاب الصدر وشريعتي محورهما «ثورة» الإمام الحسين، أما كتاب «شذرات من فلسفة تاريخ الإمام الحسين» فهو عن الجنبة الرؤية وليس السردية، لذا لم تهتم هذه الكتب كثيراً بواقعة كربلاء وما حدث فيها من وقائع وتفاصيل. وإن كان كتاب السيد محمد الصدر أكثر احتواءاً لعناصر سردية ووقائعية من كتاب شريعتي.

١٣ ـ حرص الصدر الثاني وشريعتي على فكرة أن القضايا الاجتماعية أهم من طرح الأمور العرفانية والاختصاصية للناس.

١٤ ـ طريقة كتابة محمد الصدر تساؤلية إشكالية تثير العقل وتبعث على اليقظة الحية للروح، فيصل الذهن إلى الطمأنينة العلمية الكاملة وبالتالي التعلق بالحقيقة الدينية وقضية الإمام الحسين بشكل علمي يقيني. أما طريقة كتابة علي شريعتي، فهي انفعالية تعبوية يغلب فيها البيان على البرهان، تسمو بالعاطفة وتسيطر على وجهة الإرادة التي يريدها شريعتي أن ترتبط بالحسين كقضية عصر وليست حادثة تاريخ.

١٥ ـ يعتمد الصدر وشريعتي إلى التطرق إلى الموضوعات

الجديدة، فمقاربتهما ليست تكرارية، ومن هنا نجد أن محمد الصدر في نهاية كتابه «أضواء على ثورة الإمام الحسين» يترك بقية التفاصيل إلى القارئ لكونها معروفة وشائعة في بقية الكتب.

١٦ ـ تركز كتاب شريعتي على يوم عاشوراء، بينما لم يقترب الصدر الثاني من يوم الطف إلا مساحة صغيرة جداً في كتاب «أضواء على ثورة الإمام الحسين» أما في كتاب «شذرات من فلسفة تاريخ الإمام الحسين» فلم يتطرق نهائياً. حيث كان المؤلف يتمنى لو يمتد به الزمن ليكمل المشروع ويخصص حديثاً عن ذلك اليوم:

(يجد القارئ الكريم أن هذا الكتاب غير مستوعب لكل تاريخ الحسين عليه السلام. بل فيه نقص رئيسي وهو عدم تعرضه لواقعة يوم الطف. وإنما تعرض الكتاب إلى هذا الإمام الهمام من أول أمره إلى قضية مقتل مسلم بن عقيل عليه السلام في الكوفة، بصفته سفيراً للحسين عليه السلام. وكان ذلك كافياً في انجاز هذا الكتاب، ويبقى الحديث الباقي عن وقائع يوم الطف وغيره موكولاً إلى ضمير الغيب، لعل الله سبحانه يوفقنا إليه إذا بقيت الحياة)[1].

١٧ ـ ان كتابيّ محمد الصدر هما جزء من العقل الجدلي الذي يتمتع به هذا الفقيه المثقف بشكل مُلفت ومتميز. بينما كتاب

---

(١) شذرات من فلسفة تاريخ الحسين: ص٥.

علي شريعتي هو جزء من حس الانفعال وقوة التعبئة الآيديولوجية التي اشتهر بها الدكتور الشهيد.

١٨ ـ حوى كتابي الصدر مراجعة لأهم ما كتب عن الإمام الحسين قديماً وحديثاً. أما شريعتي فقد اكتفى بنقد ثقافة تزوير ثورة الإمام الحسين ومحاولة العودة إلى المفاهيم الأولى لها. فكتاب شريعتي بقدر ما يحوي على اجتهاد خاص إلا أنه مقطوع الصلة بجهود المفكرين الآخرين.

١٩ ـ انطلقت كتابة محمد الصدر من الإشكاليات العقلية إلى تفكيك النص والحدث التاريخي. بينما ابتدء علي شريعتي من النص المتمثل بزيارة وارث، وانفتح من خلالها على الإمكان العقلي والعاطفي.

٢٠ ـ اقترب محمد صادق الصدر من فكر السيد عبد الحسين دستغيب وأنطوان بارا، في مسألة أن قضية الإمام الحسين تحتوي على جنبة عاطفية وقلبية يتجلى فيها الحب الإلٰهي وطريق العشق للكمال المطلق والعبودية التامة. وإن كان الصدر الثاني يرفض منهج الاتكالية على حب الحسين والبكاء عليه الذي يرتضيه دستغيب بعض الاحيان تبعاً للشيخ الشوشتري[1]. بينما اقترب علي شريعتي من فكر الإمام

(١) دستغيب: «سيد الشهداء» ص١٥، وبالطبع فإن دستغيب يسقط هنا في تناقض: بين أن يكون غير التائب حاصل على المغفرة والقرب الإلٰهي بالبكاء على الحسين وحبه، وبين كون الذنب حاجز لنور الحسين وبركته أن تصل إلى الإنسان المذنب، حسبما يقول دستغيب نفسه ص١٨، من ذات الكتاب.

الخميني ومحمد باقر الصدر، بتصوير الجنبة الثورة لقضية كربلاء وكيفية استنباط الآيديولوجيا الثورية من حركة الإمام الحسين.

٢١ ـ كانت محاضرات الصدر الثاني أكثر انتظاماً ومنهجية من محاضرات علي شريعتي، وبينما حوت محاضرات شريعتي جملة من التكرار والحشو الزائد في الكلام، كانت محاضرات الصدر الثاني منتظمة بلا زوائد، لكن عنصر العاطفة كان ضعيفاً، بخلاف محاضرات شريعتي المُشبعة بذلك. ولعل السبب في تكرارية كتاب شريعتي، ليس فقط طبيعة شريعتي المُسرفة في الفضفضة، وإنما لكون شريعتي كان يخاطب مزيجاً مختلطاً من الناس، بينما كان جمهور الصدر الثاني هم من طلبة الحوزة العلمية.

٢٢ ـ يحاول كلاً من الصدر الثاني وعلي شريعتي الابتعاد عن النسق الصوفي والعرفاني في قراءة واقعة كربلاء وقضيتها، لكن كلاهما يتورط في استخدام رؤى العرفاء بالقول أن شهادة الإمام الحسين قضية فرح وليس بكاء. وهي رؤية شائعة لدى شرائح واسعة من النخبة وقد أثبتنا أنها ليست تامة الحجة.

٢٣ ـ بالرغم من حدة موقف الدكتور علي شريعتي من الغرب إلا أنه لا يربط مأساة كربلاء واستشهاد الإمام الحسين، بالغرب. بينما نجد أن موقف السيد محمد صادق الصدر، موقف مخّفف من الآخر، ويستفيد منه ويحاوره، إلا أنه يعتقد بثمة

أيدٍ أجنبية خارجية كان لها الدور الكبير في جريمة قتل الإمام الحسين.

٢٤ ـ لقد اخترق علي شريعتي ميدان المعمم ورجل الدين، فكان هو رجل الثقافة الأول الذي يخطب من على منابر المساجد والحسينيات. بينما اخترق محمد صادق الصدر ميدان المثقفين، فكان هو رجل الدين الأول الذي يناقش قضايا الفلسفة وفلسفة التاريخ والفيزياء والرياضيات والحداثة والقانون، ثمة تناغم جميل بين شريعتي والصدر الثاني، تناغم بين فقه ثقافي وثقافة التفقه، تناغم في رؤية الشهادة وفي الحصول عليها.

٢٥ ـ بما أن محمد الصدر ربط قضية الحسين بتدخلات أجنبية استعمارية وكنسية، وعلي شريعتي أرجع المسألة إلى مؤسسات التزوير السلطوية والمالية والثقافية، فإن كلاهما لابد أن ينتهي تلقيه إلى تبني نوع من صيغ ذهنية المؤامرة، وإن قضية الإمام الحسين ومأساة كربلاء تنطوي على تدخلات أجنبية عديدة، وليست هي بالتالي قضية اقتتال داخل الأمة.

٢٦ ـ ترتبط قضية الإمام الحسين لدى محمد الصدر وشريعتي بالتكامل التاريخي للحضارة وفلسفة التاريخ.

٢٧ ـ كلاً من كتابي محمد الصدر «أضواء على ثورة الإمام الحسين» و«شذرات من فلسفة تاريخ الإمام الحسين» وكتاب شريعتي «الحسين وارث آدم»، يبدءان في الحديث عن

الحسين وينتهيان بتحليل مسألة الإمام المهدي. فهما متفقان على سلوك منهج قراءة الحادثة كقضية شهادة كبرى وموقف الأمة الوسط، وهي قضية لابد كي تدوم من أن تتحول إلى آيديولوجيا الاعتراض المتمثلة بعقيدة الإمام المهدي كراية كفاح من أجل الحرية والعدل.

تقوى الدم، شهادة العصر وبوابة للنصر:

كل مبدء لكي يتحول إلى قيمة تربوية لابد أن يتحول إلى قيمة رمزية شاخصة المعالم، بحيث تستطيع الذاكرة استرجاعها بسهولة، فتحتضنها الأجيال وتتعلم منها الشعوب، وتستشعر أن المبدء لايزال ينبض بالحياة ويشاركهم مأساة الواقع، وبالتالي فليس هو ذكرى ماضوية لاغير. وهذا ماجعل كل الأمم تحترم أضرحة أبطالها ومفكريها وتبني لهم التماثيل والنصب التذكارية، والشيعة ليسوا استثناءاً من سنة العقلاء هذه. فأضرحة الأئمة هي نصب وشواهد تذكارية لتلك الأرواح التي عاشت للحق وضحت للإنسان وعاشت مع الناس بكل أطيافهم وانتماءاتهم، ومنحو كل ما يملكونه للجماهير بلا مقبال أو منية. وإذا كان القول إذا خرج من القلب وقع في القلب، فلا ريب أن الفعل والتضحية التي تخرج من القلب تنفتح لها القلوب وتخلد عميقاً في الوجدان. فكان الانتماء لأهل البيت رابطة وجدانية أقوى بكثير من جمود المنطق والقضايا الذهنية. بالرغم أن أهل البيت هم أساتذة النظريات الكبرى والتعاليم الإلٰهية والسياسية والاجتماعية المتكاملة.

ومن هذا كله كان من الطبيعي أن يكون لضريح الإمام الحسين منزلة خاصة كنصب للحرية الخالدة والتضحية الكاملة:

«إن الوقوف على قبره الشريف، هو وقوف تعظيم للقيم وليس للتراب. فقد أعطى الحسين عليه السلام، أمثلة رائعة في النبل والشجاعة والصبر. وإلا قل لي بربك: أي فم يدعو لقاتليه غير فم الحسين عليه السلام. ومن قبله أفواه الأنبياء عليهم السلام؟. فقد وقف الحسين عليه السلام، ودموعه تتقاطر على خدّيه، مما حدا بأخته عليها السلام، أن تسأله: «لم تبكي؟». قال: «أبكي لهذا الجيش الذي سيدخل النار من أجلي». نعم هذه النفس المقدسة التي تتعالى على الحقد، وهو نمط من أنماط المُثل التي جسدها الحسين عليه السلام، على صعيد كربلاء»[1].

فكانت عاشوراء طريقة مختلفة في طرح الحقيقة الدينية، وتقديم تعاليم السماء ومعنوية الحق. صيغة الإنسان المتقي الذي قدمه الإمام الحسين، يختلف عن التقوى التي قدمها المسلم الفيلسوف والمسلم الصوفي والمسلم الفقيه. تقوى مختلفة لذا كانت نتائجة مختلفة أيضاً.

مرة يتم تقديم الدين بكونه انفصام مابين العقيدة والشريعة، فنكون في العقيدة خاضعين لسجن الطبيعة، مستسلمين لفكرة القدر (كما فعل الأشعري في كتابه المقالات)، بينما في الفقه

---

(١) محاضرات الوائلي: ج٢، ص٨٦.

نبحث عن الحقوق والحيل الفقهية لكسب المصالح، كما صنع أبو حنفية.

تقديم الدين بهذا الشكل معناه الوقوع في انفصامية بين فطرية الحرية وبين الخوف من مخالفة الشريعة. ويتم الخروج من مبدء الاحتياط بواسطة الحيل الفقهية، ويتم عزل العقيدة عن الحياة اليومية باعتبارها مخالفة للفطرة، فالروح البشرية تتمرد على كل فكرة ذهنية عن الجبر. وبهذا لاتستطيع هذه الصيغة من الدين من الوصول بالنفس الإنسانية إلى مرتبة التقوى أصلاً.

مرة يتم تقديم الدين كنظومة إيمانية في الجدل مع الخصوم، وهنا يكون المذهب عبارة عن ردات فعل، وصيغته معتمدة على حس دفاعي، يشغل النفس بقضايا الذهن على حساب القدرة العملية للشعور في مواجهة قضايا الحياة، التقوى هنا مكسب ذهني في قوة المحاججة يمكن أن ينتكس أمام أول اختبار للذائذ والمغريات أو الفواجع.

مرة يتم تقديم الدين كقضايا كليات، فلسفية أو ماهيات أزلية كأعيان ثابتة في الأزل، كما يعتقد المتصوفة والعرفاء. فتكون التقوى تأمل ذهني أو انعزال أوراد وامتناعات جسدية لمتنسك يتحسس من العوام ويهرب من قضايا الناس والشأن العام وليس لديه خبرة في الشؤون الخاصة. وهي تقوى تخلق عابد أو حلم نظري في مدينة فاضلة في الذهن، لكنها تنكشف عن فقر مدقع حينما نعرضها على أول مشكلة لدى الجيران. هي تقوى تتحول

إلى لذة شخصية في السرحان الذهني والتعبد: «فإن من يفكر ويفهم، يلتذ بالدرجة الأولى بشرح غامض، أو تفسير خفي أو تنوير المعتم. وكما أن من يتعاطى مع جسده لايفكر دوماً بالإنجاب، كذلك فإن من يمارس حرية التفكير وعمل الفهم، لا يفكر دوماً بالحلول العملية التي يمكن أن تنجم عن الأفكار التي يبتدعها، أي لايضع أفكاره موضع التطبيق، وإنما هو يلتذ ويفرح بقدر ما ينجح في افتتاح حقل للتفكير، أو في ابتكار أداة مفهومية، يفهم بها ما لم يكن مفهوماً، بسعيه إلى مقاومة العلماء أو عقلنة الفوضى والبهاء»[1].

وهذا هو الذي جعل حياة أئمة أهل البيت عليهم السلام مختلفة عن حياة العرفاء والمتصوفة والفلاسفة، حيث عاصر بعضهم الأئمة، مثل الكندي ورابعة العدوية والشبلي والحلاج، لكن لهؤلاء حياة مختلفة وتأثير وتراث مختلف، ولأهل البيت حياة وتأثر آخر مغاير.

ومرة يتم طرح الدين كتأثر ميداني للتضحية الحية للقائد الرمز الصامد في ميدان المعركة. وهنا تكون التقوى فعل وليس قول، التقوى نشاط حركي وليس حجاج نظري. وهذا ما جعل عاشوراء قاعدة لعودة جديدة لفعل مختلف لقراءة الفكر الإسلامي والحركية الإسلامية بالنسبة للنخبة، وتجديد الروح الثورية والنهضوية بالنسبة للجماهير.

---

(١) علي حرب: «الماهية والعلاقة نحو المنطق التحويلي» ص١٠١.

التقوى هنا نشاط تحويلي، حركة ميدانية في نفس الفرد وفي عمق معركة الحياة الاجتماعية.

لقد قدم الإمام الحسين التقوى بكونها فعل تضحية، وليس خوف وحبس، التقوى الحسينية ليست رهاب من مغريات الواقع وإنما تسامي وتعالي روحي وثقافي وعملي، لقد تحولت عاشوراء إلى مواجهة مضادة لكل استراتيجيات الهيمنة. عاشوراء ليست مهرجان طقسي أو فلكلوري وإنما تضحية الناقد من أجل النقد، تضحية الإنسان الحُرّ من أجل الحرية. في عاشوراء لا نتعرف على الله سبحانه ومعنى التوحيد الحقيقي، وإنما أيضاً على الذات الإنسانية وبواطنها الوجدانية السامية، عاشوراء هي تقوى العبور، عبور احتباسات اللغة والتاريخ والسياسة والمجتمع، التي تراكمت على الحقيقة الدينية. عاشوراء هي نزع لكافة الأقنعة وكافة المصالح المتخفية للأفراد والجماعات حيث «إن الإنسان عندما يحصل على إيمان ديني فإنه يجد نفسه مضطراً إلى التحرك بحركة نقدية، وبديهي أن هذا النقد ليس من النوع الفلسفي. ولكنه على أي حال نوع من النقد. فالشخص الذي يعيش الاهتمام الإيماني ويسعى لحفظ هذا الاهتمام فإنه ينبغي عليه اجتناب الكثير من أشكال التوقف. ومنها التوقف في القضايا العقائدية أو الحالة الجزمية في هذه القضايا. فلو ألقينا نظرة إلى حالات الأشخاص الذين عاشوا تجربة إيمانية واستمعوا للخطاب الإلهي، لرأينا أنّ هؤلاء الأشخاص يعيشون دائماً في حالة عبور، أي عبور من كل قضية ومسألة بمفهومها

النظري إلى الموجودات والحوادث الواقعة في حركة الحياة. إنّ أصحاب التجربة وأصحاب سماع الخطاب يتحركون دائماً للتخلص من القيود والسجون المختلفة من قبيل، التاريخ والمجتمع، الزمان، اللغة، و.. هؤلاء يدّعون أنّ هذا الخطاب مقدس ومتعال وليس من سنخ الخطاب البشري، ولكنهم في ذات الوقت يشعرون بأنّ هذا الخطاب قد جاء إليهم من وراء حدود اللغة والتاريخ والمجتمع وقوى الحس، ومن أجل مواجهة هذا الخطاب وتحصيله لا سبيل لديهم إلّا يصب بهذا الخطاب في هذا الظرف البشري المحدد. فالإنسان الذي يعيش هذه الحالة الوجودية فإنه دائماً يريد تحطيم جدران السجن أو على تعبير جلال الدين الرومي يريد العروج إلى السماء بهذه السلالم، ومثل هذا الشخص يتعامل مع العقائد والإيمان بروح النقد ويكون نقاداً، أي أنه لا يقبل بأي شيء ولا يتوقف بأي مكان، وعندما يصل إلى أي مقام يقول إنّ هذا المقام ليس هو الأصل والغاية بل يجب عليَّ أن أواصل المسير وأتجاوز هذا المقام»[١].

لقد كان الإمام الحسين يحاور الأعداء ويخيّر الأنصار منذ خروجه من المدينة وحتى ليلة العاشر من شهر محرم، ثمة لغة حوار متواصل، لا يوجد قهر على الآراء، الدين والانتماء والولاء، بمدرسة أهل البيت مرتبط بأدب القرآن على تبني لغة

---

(١) محمد مجتهد شبستري: «قراءة بشرية للدين» ص١٢٩. منشورات الجمل ٢٠٠٩.

الحوار. وكان النقد مفتوح، نقد الجماهير للقيادة، حتى قال معاوية بن أبي سفيان لأهل الكوفة: «لقد لامكم ابن أبي طالب الجرأة على السلطان». وقد كان الإمام علي عليه السلام يدرب الجماهير ويرفع من وعيهم وثقافتهم السياسية والحقوقية بالقول: «أشيروا عليّ فلستُ فوق أن أخطأ». وذلك قبل أن تعرف الإنسانية فلوتير وجون لوك وفلسفة الانوار. بينما خيّر الإمام الحسين أصحابه أن يتركوه أو أنهم سوف يتم إبادتهم، وهو سلوك قيادي لم تصل إليه فلسفة الإنسانية حتى يومنا هذا. الدين بهذه الصياغة يخرج عن كونه «وجع الروح»[1] إلى منزلة السلام الداخلي للكائن البشري وشحن طاقة الإبداع فيه لإعادة رسم المصير والمستقبل.

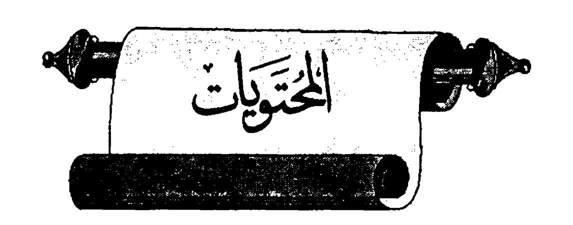
لأجل ذلك وغيره كثير تصاغر التاريخ والثقافة أمام تضحيات الحسين، فقد قدم الإمام الحسين المال والأبناء والأهل والأصدقاء والبدن والروح، بسهولة ويسر، حيث كان الهدف واضحاً والروح متيقنة وأبواب السماء مُشرعة. فلم تستطع كل تحريفات التاريخ والحبر المأجور ان تنال من حقيقة الدم، تقوى الدم وإسلام القرآن. ففي كل مرةٍ تجري محاولة تزوير التاريخ يعود الفارس لرفع لرايته بكف مقطوعة الأصبح، وينادي الوجدان وضمائر العصر، كل عصر، : (هل من ناصرٍ ينصرنا)، فيهتز ماء فرات الشهادة لكفين قطيعين، يجددان العزم على التضحية ولا

---

(١) هيجل: «فنومينولوجيا الروح»، ص٦٦٣. المنظمة العربية للترجمة ٢٠٠٦.

يذق العباس قمر العشيرة قطرة ماء، مادام ابن الحق ظمآن. تحاول المؤسسات تغيير العناوين كي يضل الجيل، جيلاً فجيل، درب إسلام الشهادة ويسقطون في فخ إسلام السقيفة، إسلام القبيلة والتجار والمضاربات السياسية ونخاسة المنح والمخصصات والهبات، لكن صرخة الطفل الرضيع وهو يتلقى السهم بين يدي أبيه تمزق أوراق مدفوعة الثمن .. آه لقد تعب التاريخ من كتابات التاريخ.




المحتويات

* ◗ *

الحسينُ طاقةُ الأملِ

إن قضية كربلاء هي قضية الإسلام وليست قضية مذهب، بل هي إعادة للفكر الإسلامي بصبغته الإنسانية المتعالية فوق المذاهب والاختلافات.

وقضية كربلاء بما حققته من منعطف لازالت تمنح طاقة من الأمل لمن يريد القراءة وتعلم الحرية، فالحرية لا تُمنح أو يتصدق بها أحد، وإنما تُصنع بقوة الإرادة الحية ويقطف ثمرتها المقدسة القلوب السليمة والأرواح المتألقة الضمير.

ISBN 978-9953-567-27-3

9 789953 567273



الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمَال

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١

تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - E-mail: almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com